
كتابي
الحب الأول
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمي مراد



الحب الأول

قصة كبرى للروائى الروسى

إيفـــان ترجنيف

الساعة الكبرى فى غرفة المائدة تدق النصف بعد الثانية عشرة .. كانت المأدبة قد انفضت وانفرط عقدها ، ولم يبق فى الغرفة غير رب البيت واثنين من ضيوفه ، هما «سرجى نيكولايفتش» و « فلاديمير بتروفتش » .. فدق رب البيت الجرس وأمر الخادم برفع بقايا الطعام ، ثم غاص فى مقعده المريح وأشعل سيجارة ، وقال لجليسيه : « إذن اتفقنا .. فليرو كل منا قصة حبه الأول ، ولتبدأ أنت يا سرجى ... » .

فالتفت سرجى – وهو رجل صغير الجسم صبوح الوجه – إلى مضيفه ، ثم رفع بصره إلى السقف برهة كالمفكر ، وقال بعد حين : « لم يكن لى حب أول .. فقد بدأت بالثانى ..! » .

– عجباً ، وكيف حدث ذلك ..؟

– إنه أمر غاية فى البساطة . كنت فى الثامنة عشرة حين أقدمت على أول مغامرة غرامية لى ، مع حسناء فاتنة .. لكنى لم أجد فى حبها ، أو حب من تلوتها من النساء ، أى جديد .. وعلى هذا فإنى أعتبر أن حبى الأول – والأخير – هو الذى أصابنى فى سن السادسة ، حين أغرمت بمربيتى !.. لكن تفصيلات علاقتنا ووقائع حبنا ذاك قد تبخرت من ذاكرتى .. ولو كنت أذكرها فما أظنها تشوق أحداً ..

وسكت « سرجى » منهياً كلامه .. فقال رب البيت : « وأنا بدورى أعتقد أن قصتى لا تشوقكما .. فإنى لم أحب امرأة

قط قبل التقائى بزوجتى « انا نيكولايفنا » !.. وقد سار كل شىء بيننا طبيعياً ، وتم زواجنا ببساطة وفى أسرع وقت .. وهكذا تتلخص قصة حبى الأول فى كلمات . والواقع أنى حين اقترحت أن يروى كل منا قصة حبه الأول كنت أعتمد عليكما ، أنتما الأعزبين المخضرمين .. وها هو سرجى قد خذلنى ، فهلا أتحفتنا يا « فلاديمير » بقصة مسلية ؟ » .

كان « فلاديمير » رجلا جاوز الأربعين ، ذا شعر أغبر كان فى شبابه فاحم السواد .. فقال بعد تفكير : « من حسن حظكما أن حبى الأول لم يكن عادياً ، فإذا شئتما رويت لكما قصته .. ولكن ، كلا ، لو رويتها لجاءت جافة مقتضبة . الأفضل أن أكتبها بإسهاب وروية ، ثم اقرأها عليكما غداً .. » .

وفى الليلة التالية قرأ عليهما « فلاديمير » القصة التالية :

– ١ –

● فى سنة ١٨٣٣ كنت فى السادسة عشرة ، أعيش فى موسكو مع والدى .. فلما أقبل الصيف استأجرنا بيتاً فى الريف ، مواجها لحدائق « نسكتشنى » . وكان والدى يعاملنى معاملة طيبة ، أقرب إلى التسامح وقلة الاكتراث .. أما والدتى – التى كانت تكبره بعشرة أعوام ، والتى تزوج منها طمعاً فى مالها ! – فكانت كذلك منصرفة عنى (برغم كونى ابنها الوحيد) إلى ملاحقة زوجها الشاب بغيرتها الشديدة وغضبها . ولكن فى غير حضوره .. فقد كان

قاسياً حازماً بارد الأعصاب ، بحيث كانت تخشاه وترهبه .. ولا تجرؤ على مواجهته بثوراتها !

وهكذا أتاح لى جو البيت أن أنعم بقسط وافر من الحرية ، أفعل فى ظله كل ما يحلو لى .. وخاصة بعد أن انتهت مرحلة دراستى المنزلية على أساتذة خصوصيين ، وظفرت بعطلة طويلة استعداداً لالتحاق بالجامعة بعد انقضاء الصيف ..

ولن أنسى الأسابيع الأولى التى قضيتها فى ذلك المنزل الريفى . كان الطقس رائعاً ، فاعتدت أن أتنزه فى حديقتنا والحدائق العامة المجاورة ، وفى يدى كتاب ما .. ولكن كان ينـدر أن أفتحه ، وإنما كنت أوثر أن أردد أبياتاً من الشعر الذى أحفظه بصوت مسموع وأنا سائر بين الأشجار ، ودمى يجرى فى عروقى ، وقلبى يرف بين ضلوعى رفيفاً عذباً غريباً ، لا عهد لى به من قبل !.. كان يملأ أعطافى الأمل ، والترقب ، والخوف من شىء ما ، والعجب من كل شىء .. وخيالى يحلق بى على الدوام فى الآفاق البعيدة ، ويحوم حول النزوات الحمقاء ، كما تحلق الحمائم فوق أبراج الأجراس عند الفجر ! .. كنت أحلم ، وأكتئب ، وأبكى أحياناً .. ولكن من خلال الدموع والأشجان كانت عذوبة النغم الجميل أو فتنة الليل الساجى تنتزعنى من همى فأستمرئ الإحساس اللذيذ بالشباب ، والحياة الفوارة ، وأزدهر كما تزدهر الحشائش فى الربيع ..!

وكان عندى حصان أركبه ، فكنت أسرجه بنفسى وأنطلق فى جولات بعيـدة أركض فيها خلال الحقول بأقصى سرعة ، وأنا أتصور نفسى فارساً من فرسان العصور الوسطى البواسل . والهواء يهمس فى أذنى بالأمانى الحلوة ، فأرفع وجهى نحو السماء أستروح إشعاعها المشرق وأغترف زرقتها الصافية ، فأملأ منهما روحى الرحبة المفتوحة أبداً لاستقبالها ...

فى ذلك الوقت لم تكن صورة المرأة ورؤى الحب تتخـذ لنفسها فى ذهنى صورة واضحة محددة .. ولكن فى كل أفكارى ومشاعرى كان يكمن إحساس غامض خفى خجول ، نصف نائم ونصف يقظان ، بشىء جديد .. عذب .. أنثوى !.. وهو إحساس هيمن على كيانى كله فتنفسته وجرى فى عروقى مختلطاً بكل قطرة من دمى .. فكان مصيره حتماً أن يشبع ويرتوى !

وكان بجوار البيت الذى استأجرناه فى ذلك الصيف مسكن خشبى صغير معد للتأجير .. وذات يوم — بعد نحو ثلاثة أسابيع من وصولنا — فتحت نوافذ المسكن المذكور وأطلت منها وجوه بضع نسوة . كانت إحـدى الأسر قد استأجرته .. وفى نفس اليوم استفسرت أمى من الخادم ونحن حول مائدة الغداء عن جيراننا الجدد ، فلم يكد ينطق باسم الأميرة « زازيكين » حتى عقبت أمى فى لهجة احترام وتوقير : « آه ، أميرة .. » ثم أضافت : « ولكنها أميرة فقيرة فيما أحسب .. » فقال الخادم وهو يقدم أحد أطباق

الطعام : « نعم .. فقد أحضرت متاعها على عربات بالأجرة .. والمتاع كله متواضع من أحقر صنف ! » وإذ ذاك قالت أمى معلقة على كلامه : « هذا من حسن الحظ .. ! » فحدجها أبى بنظرة لوم صارمة ، أسكتتها !

لكن الحديث كله لم يكن يعنينى ، فدخل سمعى من أذن ، وخرج من الأخرى ..

— ٢ —

● وكنت قد اعتدت التجوال فى حديقتنا كل عصر ، بحثاً عن غربان أصطادها ببندقيتى الصغيرة ، وفى ذلك اليوم تمخضت جولتى عن فشل ذريع .. وفيما أنا عائد إلى البيت صادف أن مررت بجوار السور المنخفض الذى يفصل حديقتنا عن حديقة الجيران .. وكان بصرى إلى الأرض حين طرق سمعى فجأة صوت صادر من الحديقة المجاورة .. فالتفت ناحية مصدره ، وإذا بصرى يقع على منظر غريب فى بابه !

كانت فتاة طويلة رشيقة القد ، ترتدى ثوباً وردياً وتضع على رأسها منديلا أبيض ، منتصبة فوق الحشائش وسط « هالة » مكونة من أربعة شبان .. تضرب جباههم الواحد بعد الآخر بغصن رفيع من أغصان الشجر ، وهم يقدمون لها الجباه برضا وارتياح ! .. وكانت حركات الفتاة ولفتاتها فاتنة ، آمرة ، ساخرة إلى حد كاد يخرجنى عن طورى ويجعلنى أصبح إعجاباً بها وافتتاناً . بل أتمنى

لو أنزل لها عن كل ما أملك نظير أن تمنحنى ضربة من أصابعها الرقيقة على جبينى !

وأذهلنى جمالها عن نفسى ، فسقطت بندقيتى منى على الأرض بغير أن أشعر . ونسيت كل شىء إلا المخلوقة الناعمة التى أراها أمامى فى وضع جانبى ، والتى راح بصرى ينهب رقبتها العاجية ، وذراعيها الناصعتين وشعرها المرسل تحت منديلها الأبيض ، وعينيها نصف المغمضتين ، وأهدابها الطويلة ، وخديها الناعمين ! .. وفجأة صاح بى صوت رجل صادر من مدى قريب : « يا فتى .. يا فتى .. أيليق أن تنظر هكذا إلى امرأة لا تعرفها ؟ » .

والتفت .. فإذا الرجل يرمقنى من وراء السور بنظرة ساخرة .. وفى نفس اللحظة استدارت الفتاة بوجهها نحوى ، وضحكت .. فبرقت عيناها الغبراوان بريقاً خلاباً ، ولمع بين قرمز شفتيها صف من الأسنان اللؤلؤية الجميلة .. فلم أملك غير أن غضضت الطرف فى إجفال ، ثم التقطت بندقيتى ومضيت ، وضحكتها الموسيقية تتبعنى .. حتى بلغت غرفتى فارتميت على الفراش ودفنت وجهى بين راحتى ، وقد أخذ قلبى ينتفض فى صدرى من فرط الخجل ، والفرح ، والانفعال الممتع الذى لم أكن قد تذوقته من قبل !

وحين تمالكت نفسى بعد برهة ، فصففت شعرى وهبطت إلى الطابق الأرضى لأتناول الشاى ، كانت صورة الفتاة تتماوج أمام عينى .. فسألنى والدى وقد لحظ اضطرابى : « ماذا ؟ .. هل

قتلت غراباً ؟ » وإذ ذاك أوشكت أن أقص عليه كل شىء ، لولا أنى قمعت ميلى فى آخر لحظة ، وابتسمت لنفسى .. !

— ٣ —

● « كيف أتعرف إليها ؟ » .

كان هذا أول ما فكرت فيه حين استيقظت فى الصباح التالى .. فهبطت إلى الحديقة قبل تناول الإفطار ، لكنى جبنت عن الاقتراب من السور !.. وبعد الإفطار خرجت إلى الشارع ، فجعلت أتمشى أمام البيت ذهاباً وإياباً ، وأتطلع إلى نوافذ غرفتها من بعيد ، حتى لمحت وجهها وراء إحدى الستائر فهرعت مبتعداً فى انزعاج ، مستأنفاً طوافى العقيم بمحاذاة الحدائق العامة ، وأنا أجهد ذهنى بالتفكير فى شىء واحد : « كيف أتعرف إليها ؟ » .

لكن القدر كان رحيماً بى ، فتولى حل مشكلتى من حيث لا أدرى . لم أكد أعود إدراجى إلى البيت حتى علمت من أمى أنها تلقت فى فترة غيابى رسالة من جارتها الجديدة تسألها فيها أن تسمح لها بزيارتها كى توسطها لدى بعض ذوى المناصب الكبرى ممن تعرفهم ليذللوا لها عقبة تعترض بعض أعمالها . وعلى هذا طلبت منى أمى أن أنوب عنها فى إبلاغ الأميرة ترحيبها ورجاءها أن تتفضل بزيارتها فى الساعة الواحدة إذا شاءت ..

كتمت عن أمى فرحتى بهذه الاستجابة السريعة لأمنيتى ،

وصعدت إلى غرفتى فأبدلت ثيابى ، ثم هبطت أعدو إلى بيت الأميرة ..

وعلى باب الحديقة ، أو الممر الضيق المؤدى إلى البيت ، استقبلنى خادم أشيب الشعر أسمر الوجه ، متسائلا : « ماذا تريد ؟ » .

— هل الأميرة زازيكين فى البيت ؟

وقبل أن يجيبنى سمعت صوتاً نسائياً يناديه من الداخل : « فوتيفانى ! » .. فأدار الرجل ظهره ومضى ليلبى نداء سيدته .. ثم عاد يدعونى إلى الدخول ، فبذلت مجهوداً كبيراً للسيطرة على أعصابى وهو يقودنى إلى غرفة الاستقبال .. وهناك وجدت امرأة فى نحو الخمسين ، قبيحة الخلقة ، تجلس فوق مقعد مريح بقرب النافذة ، وعيناها السوداوان الصغيرتان ترقبان الباب ، فاتجهت إليها رأساً وانحنيت أمامها محيياً ، ثم قلت : « أحسب أن لى شرف مخاطبة الأميرة زازيكين ؟ » .

— أنا الأميرة زازيكين .. وأنت ابن مسيو « ف » ، أليس كذلك ؟

— نعم ، وقد جئت برسالة من أمى ..

— تفضل بالجلوس ..

وأنهيت إليها رد أمى على رسالتها ، فاستمعت إليه وهى تنقر على إطار النافذة بأصابعها الحمراء المتورمة ، وحين أنهيت كلامى

نظرت إلى نظرة ثابتة ثم قالت : « حسناً .. سوف آتى بالتأكيد .. أنك تبدو صغيراً ، كم سنك .. إذا جاز لى أن أسأل ؟ » .

— ست عشرة سنة ..

— جميل .. والآن اعتبر نفسك فى بيتك ، فأنا أمقت الكلفة والمظاهر الرسمية ..

وفى تلك اللحظة انفتح باب الغرفة وبرزت منه الفتاة التى رأيتها فى الليلة السابقة فى الحديقة .. فلم يكد بصرها يقع على حتى ارتسمت على فمها ابتسامة ساخرة .. بينما قالت الأم مشيرة إليها : « هذه ابنتى « زينوتشكا » .. وهذا هو ابن الجيران .. هل لى أن أسألك عن اسمك ؟ » .

فأجبتها وأنا أنهض محيياً الفتاة فى اضطراب : « فلاديمير » .

— واسم والدك ؟

— « بتروفتش » .

— كنت أعرف فيما مضى « قوميسيراً » للبوليس يدعى فلاديمير بتروفتش أيضاً ..

وكانت الفتاة ما تزال ترمقنى بنفس النظرة ، وهى تميل برأسها قليلا ، وأجفانها تختلج فى حركة رشيقة .. ثم قالت أخيراً : « لقد رأيت (فولدمار) من قبل . أتسمح لى أن أدعوك بهذا الاسم ؟» .. وكان فى صوتها جرس كرنين الفضة ، بعث فى أوصالى رعشة عذبة .. فأجبتها فى لهفة : « ربك افعلى » .

وتنبهت الأميرة الأم متأخرة ، فسألت : « ماذا تقولان ؟ » .. لكن ابنتها لم تجبها ، بل مضت فى حديثها معى بغير أن تحول بصرها عنى : « هل عندك ما يشغلك الآن ؟ » .

— كلا ..

— إذن هل لك أن تساعدنى فى طى بضع كرات من صوف الإبرة ؟ هيا بنا ..

وأومأت إلى برأسها كى أتبعها ، فسرت وراءها إلى غرفتها كما لو كنت أمشى فى حلم .. حتى جلست هى على مقعد وأشارت إلى كى أجلس فى المقعد المقابل ، ثم فكت رباط « شلة » من الصوف الأحمر ووضعتها بين رسغى يدى .. كل ذلك وهى صامتة تفتر شفتاها عن تلك الابتسامة الخفيفة الماكرة !.. ثم بدأت تطوى الخيط على كرة صغيرة من الورق.. وفجأة رمقتنى بنظرة براقة خاطفة سببت لى دواراً ، فلم أقو على الصمود لها ، وغضضت بصرى مرغماً .. فسألتنى بعد لحظة : « ماذا دار بخاطرك عنى أمس يا فولدمار ؟ أحسبك أسأت بى الظن ؟! » .

فأجبتها فى ارتباك: «أنا .. يا صاحبة السمو .. أبداً .. كيف؟» .

فقالت معقبة : « أصغ لى .. أنك لا تعرفنى جيداً .. أنا مخلوقة غريبة ، أحب دائماً أن أسمع قول الصدق ، وأنت — كما ذكرت الآن — فى السادسة عشرة ، وأنا فى الواحدة والعشرين .. وهكذا ترى أننى أكبر منك بسنوات ، ، وإذن فيجب أن تصدقنى القول

دائماً ، وأن تفعل ما أطلبه منك .. انظر إلى .. لماذا لا تنظر إلى ؟» .

وكنت لا أزال مرتبكاً ، لكنى تحاملت على خجلى ورفعت عينى إليها .. فابتسمت ، لا ابتسامتها الأولى ، وإنما ابتسامة تشجيع .. ثم قالت بصوت متهدج حنون : « انظر إلى .. لست أمانع فى ذلك .. فإنى معجبة بك ، وأشعر شعوراً غامضاً بأننا سوف نصير أصدقاء .. ولكن ، ترى هل أعجبتك ؟ » .

— يا صاحبة السمو ..

لكنها قاطعتنى قائلة : « أولا يجب أن تنادينى باسمى « زينايدا الكسندروفنا » .. وثانياً إنها عادة سيئة فى الشباب ألا يجاهروا بآرائهم ومشاعرهم فوراً وبصراحة .. أننى أعجبك ، أليس كذلك ؟ » .

فأجبتها وأنا أتكلف أقصى ما استطعت من مظاهر « الرجولة » والاتزان : « بلا شك » ، يا زينايدا الكسندروفنا .. ولست أميل إلى إخفاء شعورى .. » .

فهزت رأسها فى خفة ، ثم سألتنى فجأة : « هل لك مرب أو معلم خصوصى ؟ » .

— أوه ، كلا .. كان ذلك منذ زمن بعيد ..

وقد كذبت ، فإنه لم يكن مضى شهر على رحيل معلمى الفرنسى .. لكن أكذوبتى أثمرت ثمرتها التى أردتها ، فقد علقت على جوابى قائلة : « إذن فأنت قد كبرت ! .. » ثم نقرت على

أصابعى وأضافت : « أمدد ذراعيك بالخيط جيداً ! » .. وانهمكت من جديد فى طى خيوط الصوف على كرة الورق ، فانتهزت فرصة إطراقها ببصرها إلى أسفل وجعلت أتأملها بإمعان وجرأة تزايدتا تدريجاً ! .. فبدا لى وجهها أجمل وأشد فتنة منه بالأمس . كان كل ما فيه عذباً جذاباً . وكانت جالسة وظهرها إلى نافذة عليها ستارة بيضاء شفافة ، تنساب خلالها أشعة الشمس فلا يقع منها إلا ظلها الناعم على جدائل شعرها الذهبى ، وعنقها الناصع ، وكتفيها المستديرتين ، ونحرها المخروط بانتظام رائع ! .. فقضيت أتملى من جمالها وأفكر . شعرت كأنى أعرفها منذ زمن ، بل كأنى لم أعرف الحياة أو أتذوقها قبل أن ألقاها .. كانت ترتدى ثوباً بسيطاً ، فتملكنى ميل قوى وحنين إلى تقبيل كل ذرة من ذلك الثوب ! ولمحت طرف حذائها من تحت ردائها .. ماذا لو انحنيت فلثمت حذاءها ؟! .. وهمست لنفسى : « ها أنذا قد تعرفت إليها .. بل ها أنذا جالس أمامها .. فأية سعادة حبوتنى بها يا ربى ؟ » وبذلت مجهوداً كى لا أقفز من مقعدى نشوان .. فقد كنت سعيداً سعادة السمك فى الماء ، ولو خيرت لبقيت فى تلك الغرفة لا أبرحها .. إلى الأبد !

ثم رفعت الفتاة أجفانها ببطء إلى ، ومرة أخرى برقت عيناها بريقاً حنوناً ، وابتسمت ، وهى ترفع إصبعها نحوى مهددة : « كيف جرؤت أن تنظر إلى ؟ » .. فصعد الدم إلى وجهى ،

وجالت الخواطر برأسى : « أنها قد لحظت كل شىء ، وفهمتنى ! كيف لا وهى .. » .

وفى تلك اللحظة سمعنا دقاً على الباب .. كان الطارق خادمنا نحن ، أرسلته أمى ليتعجل عودتى حاملا رد الأميرة على دعوتها .. فخرجت بصحبة الفتاة إلى غرفة أمها ، وهناك انحنيت للأميرة قائلا : « آن لى أن أذهب يا صاحبة السمو ، فهل أقول لأمى : إنك قادمة لزيارتها حوالى الساعة الثانية ؟ » فقالت : « نعم ، يا بنى .. » ثم رفعت إلى أنفها علبة السعوط التى فى يدها فتنشقت منها أنفاساً ، بينما كنت أستدير للخروج .. وتبعنى صوت الابنة يقول : « تعال لزيارتنا ثانية يا فولديمار » ثم ضحكت !

« لماذا تضحك دائماً ؟ » أخذت أدير هذا التساؤل فى ذهنى وأنا عائد إلى البيت . وحين وصلت أنبتنى أمى بعنف على تأخرى ، فلم أجب بحرف.. وأسرعت إلى غرفتى لأخلو بنفسى .. وأحلم !

— ٤ —

● وفى الموعد المحدد جاءت الأميرة لزيارة أمى ، لكنها تركت فى نفسها أثراً سيئاً ، فقد قالت أمى لأبى على أثر ذلك ونحن جلوس حول مائدة الغداء : « إن هذه الأميرة زازيكين تبدو امرأة سوقية مشاكسة ، وقد صدعت رأسى بالحديث عن منازعاتها القضائية والمالية التى تطلب منى التوسط لها بشأنها لدى أحد الأمراء ! » .. ثم أضافت أمى أنها برغم ذلك قد اضطرت لدعوتها هى وابنتها

لتناول الطعام فى اليوم التالى ، بحكم الجوار واللقب الذى تحمله على الأقل !.. وقد علق أبى على الحديث بقوله : إنه قد تذكر أخيراً أنه كان فى شبابه يعرف زوج الأميرة المرحوم « زازيكين » ، الذى كان يعرف فى المجتمعات بلقب « الباريسى » نظراً لأنه قضى فترة طويلة من شبابه فى باريس ، وقد كان من الأثرياء لكنه أضاع ثروته فى القمار !.. ثم أضاف أبى أنه قد سمع أن الابنة جميلة ومثقفة ، مثل أبيها لا أمها !

وانتهت المناقشة عند هذا الحد .. وبعد الغداء خرجت إلى الحديقة ، بعد أن أقسمت لنفسى ألا أقترب من حديقة الجيران .. لكن قوة خفية جذبتنى برغمى إلى هناك ، فلم أكد أبلغ سور الحديقة حتى لمحت « زينايدا » !.. لكنها كانت وحيدة هذه المرة، تتمشى على مهل وقد أمسكت فى يدها كتاباً تقرأه .. حتى اقتربت منى ومرت بمحاذاتى ، بغير أن تلحظنى ، فآثرت أن أدعها وشأنها .. لكنى للحال شعرت فجأة بحافز قوى يدفعنى إلى أن أسعل متعمداً ، كى أنبهها إلى وجودى ، ففعلت .. وإذ ذاك استدارت بوجهها من غير أن تقف ، وأزاحت بيدها شريط قبعتها العريضة عن عينيها ، ونظرت إلى ، ثم ابتسمت ابتسامة باردة .. وعادت إلى مطالعة الكتاب !

وكنت قد شرعت فى رفع قبعتى تحية لها ، فجمدت يدى .. واستأنفت سيرى بخطى بطيئة وقلب ثقيل ، وأنا أهمس لنفسى :

« من أكون أنا بالنسبة لها ؟ » .. وبعد لحظة سمعت خلفى خطوات مألوفة ، فاستدرت .. وإذا أبى مقبل ..

— أهذه هى الأميرة الشابة ؟

— نعم ..

— أو تعرفها ؟

— رأيتها هذا الصباح عند أمها ..

فتوقف أبى ، وعاد أدراجه .. حتى حاذى الفتاة ، فانحنى لها محيياً .. فردت له الانحناءة وقد أسفرت الدهشة فى عينيها ، وكفت عن القراءة .. ثم تبعته ببصرها برهة وهو يبتعد .. فلحقت بها بدورى ، لكنها لم تعبأ حتى بالنظر إلى ، وإنما رفعت كتابها إلى عينيها مرة أخرى واستأنفت القراءة !

— ٥ —

● قضيت تلك الليلة — وطيلة اليوم التالى — فى شبه ذهول ، أحاول استذكار بعض علومى فلا أعى منها شيئاً ، فقد كانت الحروف المطبوعة تمر أمامى مجردة من كل معنى !.. وأذكر أنى قرأت هذه العبارة أكثر من عشر مرات : « كان يوليوس قيصر يمتاز بشجاعته الفائقة الشبيهة بشجاعة الجندى المحارب فى ميدان القتال » لكنى لم أفهم منها حرفاً ، فألقيت الكتاب جانباً ! .. وقبيل موعد الغداء صففت شعرى وارتديت سترتى الأنيقة ورباط رقبتى الجديد . فسألتنى أمى : « علام كل هذا ؟.. أنك لم تدخل الجامعة

بعد . ومن يدرى هل تنجح فى الامتحان أم لا .. » فأجبتها فى اكتئاب : « لبست هكذا من أجل الضيوف القادمين » .. فقالت ساخرة : « يا لهم من ضيوف ممتازين .. كفى هراء ! » .. فاضطررت لإبدال سترتى ، ولكنى احتفظت برباط الرقبة !

وجاءت الأميرة وابنتها بعد قليل .. فجلسنا حول المائدة ، وجاءت جلسة أبى إلى جوار « زينايدا » فجعل يحدثها ويحييها بظرفه ولباقته ، وأعجبتنى لهجتها فى نطق الفرنسية .. أما أمى فلم تعجب بالأم ولا بالابنة ، وقالت عن الأخيرة : إنها فتاة مغرورة ، بلا مبرر !.. وبعد الغداء بقليل انصرفت الضيفتان ، فرافق أبى الأميرة حتى الباب الخارجى .. وحين مرت بى « زينايدا » مسرعة همست لى بلهجتها الرقيقة : « تعال لزيارتنا فى الثامنة ، أتسمع ؟.. لا تنس » .. وأدهشنى تقلبها وأطوارها ، فإن معاملتها الجافة لى خلال الغداء كانت قد سحقتنى وأيأستنى .. ولكن ها هى تغير خطتها معى على حين غرة !

— ٦ —

● وفى الثامنة تماماً عبرت باب حديقة الجيران ، وأنا فى أزهى ثيابى .. وكانت تنبعث من الداخل أصوات مرحة ، فلم أكد أدخل الردهة حتى تراجعت مدهوشاً . كانت الفتاة واقفة فوق كرسى فى وسط المكان ، ممسكة بيدها قبعة رجل ، وحولها « نصف دستة » من الرجال يحاولون لمس القبعة بأيديهم ، عبثاً .. ولم تكد

ترانى حتى صاحت : « انتظروا . انتظروا .. ها هو ذا ضيف آخر ، لابد له من تذكرة أيضاً » ثم قفزت من الكرسى إلى الأرض واقتادتنى إلى وسطهم قائلة : « أيها السادة ، دعونى أعرفكم بمسيو (فولدمار) ، ابن جيراننا .. وهؤلاء هم : الكونت مالفسكى ، دكتور لوشين ، الشاعر ميدانوف ، الضابط المتقاعد نيرماتسكى ، وضابط (الهوسار) بايلفزروف .. فعلكم تصيرون أصدقاء » .

أما أنا فكنت فى حالة من الارتباك أنستنى حتى أن أنحنى لواحد منهم ، بينما استطردت زينايدا قائلة : « اكتب تذكرة لمسيو فولدمار ياكونت » .. فسرت همسة احتجاج بين الحاضرين ، لكن الفتاة أصرت على طلبها ، فلباه الكونت مرغماً .. ثم شرح « لوشين » الأمر لى بلهجة ساخرة : « نحن نلعب لعبة يانصيب ، ومن يلتقط الثمرة الرابحة من القبعة يحظى بشرف تقبيل يد الأميرة زينايدا . أفهمت يا فتى ؟ » .

لكن « الفتى » وقف حائراً صامتاً ، بينما قفزت الفتاة فوق الكرسى من جديد وشرعت تهز القبعة بما فيها فوق رءوسنا ، وكل منا يمد يده نحوها فيأخذ نصيبه .. وكنت آخرهم فى الحصول على ورقتى ، لكنى لم أكد أفضها حتى .. يا إلهى ، ترى كيف كان منظرى حين قرأت فيها كلمة « قبلة » ؟! .. كل ما أذكره أنى صحت بأعلى صوتى : « قبلة ! » .. فصاحت الأميرة فى أثرى : « برافو ، لقد ربحتها .. كم أنا مسرورة بذلك » وهبطت من الكرسى

وهى ترمقنى بنظرة عذبة أدارت رأسى . ثم سألتنى : « هل أنت مسرور بالنتيجة ؟ » .. فقلت فى حشرجة وغباء : « أنا ؟ » .. وفى تلك اللحظة سمعت أحدهم يهمس لى : « بعنى ثمرتك الرابحة ، أنى أدفع لك فيها مائة روبية ! » .. فلم أجبه إلا بنظرة احتقار بالغة جعلت الفتاة تصفق بيديها شامتة .. ثم جاءت مرحلة « التنفيذ » فطلب منى لوشين أن أجثو على إحدى ركبتى ، ووقفت زينايدا أمامى مادة يدها إلى فى وقار .. ومرت أمام عينى سحابة . لكنى تمالكت نفسى فضغطت شفتى على أصابعها بنهم إلى حد أن طرف ظفرها خدشنى !.. فصاح لوشين وهو يعيننى على النهوض : « لقد أتقنتها ... » .

ثم ابتكرت الجماعة ألعاباً مسلية مختلفة ، سادها الهرج والمرح والضحك الصاخب ، حتى لقد دار رأسى ، وكأنى ثملت بخمر مجهولة ، فجعلت أضحك وأتصايح ، وقد أحسست بسعادة لا توصف .. وطيلة الوقت حبتنى زينايدا بالكثير من عطفها ومحاباتها ، وأجلستنى بجوارها .. وفى إحدى اللعبات كان على أن أجلس معها تحت ملاءة كبيرة سوداء شبه شفافة ، تغطى كلينا تماماً ، كى أهمس لها « بكلمة السر » فى اللعبة .. ولن أنسى التصاق رأسينا فى الظلام ، وبريق عينيها الناعم فى العتمة ، والأنفاس الساخنة التى لفحتنى من شفتيها ، ولمعة أسنانها اللؤلؤية ، ودغدغة شعرها المرسل التى أشعلت النار فى بدنى !.. لكنى لبثت

صامتاً ، فنظرت إلى وابتسمت ابتسامتها الغامضة الماكرة ، ثم همست فى أذنى أخيراً : « ماذا بك ؟ » .. فأحسست بالدم يصعد إلى وجهى ، وضحكت ضحكة هستيرية وأنا ألتقط أنفاسى اللاهثة مشيحاً عنها !

واستأنفنا ألعابنا .. يا إلهى ، أى شىء لم نفعله فى تلك الليلة ! لعبنا على البيانو ، ورقصنا ، وغنينا ، ومثلنا « معسكر الغجر » ، وقلدنا الدببة ، واشتركنا فى أعجب الحيل وخدع « الكوتشينة » ، ثم أنشد لنا « ميدانوف » بعض أشعاره الجميلة ، وألبسنا الخادم ثوب امرأة ، ولبست الأميرة ثياب رجل ... إلخ .

وأخيراً تعبنا وأنهكنا الصخب ، فأعد لنا العشاء ، حوالى منتصف الليل .. وبعد أن أكلنا وشربنا تفرقنا ، فغادرت المنزل أخيراً وقد أرهقتنى سعادتى ، وفيما أنا أصافح زينايدا مودعاً ضغطت على يدى بحرارة وابتسمت لى .. ابتسامتها الغامضة !

كان هواء الليل حين خرجت ثقيلا رطباً وهو يلطم وجهى الساخن ، وقد بدت فى الجو تباشير عاصفة تتجمع ، وتسوق أمامها على أديم السماء قطيعاً من السحب السود تضطرب وترتعش فوق هامات الأشجار القائمة من بعيد ، وهزيم الرعد الغاضب يدمدم عند الأفق .. فأخذت طريقى إلى غرفتى من السلم الخلفى . وكان خادمى الخاص مضطجعاً داخل الباب ، فخطوت فوقه متلصصاً .. لكنه استيقظ ورآنى . فأنبأنى أن أمى غضبت لتأخرى

وأرادت أن ترسل فى استدعائى لولا أن أبى نهاها عن ذلك !

وفى غرفتى جلست على مقعد ، مخدر الأعصاب ، لا أفكر فى أن أخلع ثيابى أو أنام ، وإنما أستمرئ لذة إحساسى الجديد العذب ، وأضحك فى نفسى بين الحين والآخر كلما تذكرت نادرة حدثت خلال السهرة .. أو أحس ببرودة فى أطرافى كلما فكرت فى أننى « أحب » ، وأن هذا هو الحب ! .. فيطفو وجه زينايدا أمامى ببطء من الظلام ، ووجهها بنفس الابتسامة الغامضة على الشفتين ، ونفس النظرة المتسائلة الحالمة الرقيقة من العينين ! .. وأخيراً نهضت من المقعد فمشيت إلى فراشى وتمددت عليه ، بثيابى . ثم أرحت رأسى على الوسادة فى رفق ، كأنما خشيت أن أفعلها بحركة عنيفة تبدد الأطياف التى تملأه .. لكنى لم أغمض عينى ، وإنما لبثت أرقب وميض البرق فى الخارج ، وكتلة الحدائق العامة السوداء ، وواجهات المبانى الصفراء .. حتى أطل الفجر من الأفق وانتثرت فى الجو رقع السحاب الأحمر .. فشعرت بالتعب والنعاس . وصورة زينايدا تطفو أمام عينى .. حتى أغفيت !

أواه أيتها المشاعر العذبة والنفحات المباركة التى تعمر القلب حين يختلج بأولى انفعالات الحب .. أين أنت ؟ .. أين أنت ؟

- ٧ -

● وفى الصباح ، حين جلست إلى مائدة الإفطار أنبتنى أمى بشدة ، وطلبت منى أن أقص عليها كيف قضيت الليلة السابقة ..

فأجبتها فى بضع كلمات بعد أن حذفت أكثر التفصيلات ، وخلعت
على كل ما رويته طابع البراءة التامة .. وبرغم ذلك فقد قالت
معقبة : « على أى حال لا أحب لك أن تخالط هؤلاء الناس ، ثم
أمامك دروسك وامتحاناتك التى يجب أن توليها كل التفاتك .. ».

لكنى لم أكد أفرغ من الإفطار حتى أخذنى أبى من ذراعى
ومضينا إلى الحديقة ، وهناك أجبرنى أن أصارحه بكل ما رأيت
فى بيت آل زازيكين ، مستغلا احترامى وحبى ، بل صداقتى له ..
فأفضيت له بكافة التفصيلات ، وأصغى هو إلى بمزيج من الانتباه
وعدم المبالاة ، وهو جالس على أحد مقاعد الحديقة يرسم بعصاه
على الرمل أشكالا ورسوماً مختلفة ، يضحك أحياناً ، أو ينظر إلى
بإمعان ، أو يسألنى سؤالا قصيراً .. وفى البداية لم أجرؤ على أن
أنطق أمامه باسم زينايدا ، لكنى لم أستطع أن أقمع ميلى إلى أطرائها ،
فضحك والدى طويلا ، ثم بدا كمن يمعن الفكر .. وأخيراً نهض
ومضى عنى ، ثم اختفى عند الباب الخارجى ، لكنى لمحت قبعته
تتحرك بحذاء السور .. حتى اختفت بدورها داخل حديقة
الجيران !

قضى أبى نحو ساعة فى بيت آل زازيكين ، ثم خرج فمضى
مباشرة إلى المدينة ، ولم يعد إلا فى المساء !.. أما أنا فذهبت إلى
بيت زينايدا بعد الغداء . فلم تكد الأميرة العجوز ترانى حتى طلبت
منى أن أنسخ لها عريضة أعطتنى مسودتها ، فجلست ألبى رغبتها .

وكان باب الغرفة المجاورة قد فتح أثناء ذلك . فرأيت منه وجه
زينايدا شاحباً ، وشعرها مرسلا على كتفيها فى إهمال واضح .
ونظرت الفتاة إلى بعينيها الواسعتين لحظة ، ثم .. أغلقت الباب فى
وجهى برفق !.. ونادت الأم مراراً : « زينا .. زينا » لكنها لم تتلق
رداً .. فأخذت العريضة معى إلى البيت وعكفت طيلة الليل على
نسخها ..

- ٨ -

● ومنذ ذلك اليوم شعرت أننى لم أعد طفلا .. فكان يوم بداية
حبى وبداية آلامى !.. لم أعد أطيق البعد عن زينايدا ، صرت أقضى
أيامى وليالى أفكر فيها تفكيراً مضنياً .. وتملكتنى الغيرة ، إذ شعرت
بضآلتى فى نظرها ، لكن قوة خفية كانت تجذبنى دائماً إليها ،
فأنتفض فرحاً وأنا أعبر باب غرفتها !

وأدركت زينايدا أننى قد تدلهت فى حبها ، فجعلت من
عاطفتى لعبتها ، وعذبتنى بلا رحمة .. مارست معى تلك اللذة
القاسية التى يستمرئها الإنسان حين يشعر أنه قد صار — بالنسبة
لشخص آخر — المنبع الوحيد لفرحه الطاغى وألمه المميت !..
صرت كالشمع بين يديها ، لكنى لم أكن الوحيد الذى أحبها ،
فإن كل الرجال الذين كانوا يترددون على البيت شغفوا بها شغفاً
جنونياً ، ولكن خاسراً .. فقد احتفظت بهم جميعاً عند قدميها .
كانت تسليتها الكبرى أن تستثير آمالهم ، ثم مخاوفهم .. وأن تضرب

رءوسهم بعضها بالبعض الآخر ، من غير أن يخطر ببالهم أن يتمردوا أو يقاوموا !.. وكانت عواطفها ومشاعرها المتناقضة تتعاقب على شفتيها وعينيها بسرعة وسهولة كما تتعاقب ظلال السحب فى صفحة السماء فى يوم عاصف ، فكان وجهها يعبر عن السخرية ، والاستغراق فى الأحلام ، والهوى المشتعل ، فى آن واحد تقريباً ، أو فى لحظات متلاحقة خاطفة ..!

وكان كل رجل من عشاقها ضرورياً بالنسبة لها . كان بايلفزروف « حيوانها المتوحش » الذى يقذف بنفسه فى النار طائعاً مختاراً من أجلها .. و « ميدانوف » شاعرها المفضل الذى ينشدها قصائد غزله الحارة فى حماسة دافقة ، فيستجيب « للأنسجة » الشاعرية فى طبيعتها !.. و « لوشين » طبيبها الساخر الذى يفهمها أكثر من سواه ، ويحبها أكثر من سواه ، فتحترمه بالرغم منها ، وإن لم تعدم أوقاتاً ومناسبات تمارس معه فيها لذتها الخبيثة فى إشعاره بأنه هو بدوره تحت رحمتها !.. أما الكونت « مالفسكى » فقد عجزت عن فهم مدى العلاقة بينه وبين زينايدا . لكن دمى كان يفور ويغلى فى عروقى كلما رأيته يقترب منها فى نعومة الثعلب فيتكىء على ظهر مقعدها ثم يهمس فى أذنيها بكلماته المعسولة وهو يبتسم ابتسامته المثيرة ، بينما تعقد هى ذراعيها على صدرها وتصغى إليه ، ثم تبتسم وتهز رأسها ..!

وذات يوم جرؤت فسألتها : « ماذا يغريك باستقبال الكونت

مالفسكى فى بيتك ؟ » فأجابتنى ساخرة : « شاربه الجذاب » ! ثم استطردت جادة : « هل تحسبنى مولعة به ؟.. إننى لا أستطيع أن أولع برجل أدنى منى فى المرتبة ، بحيث أنظر إليه من عل .. وإنما أشترط فى رجلى أن يستطيع السيطرة على . وإن كنت آمل ألا أعثر على ضالتى قط . فلست أريد الوقوع فى براثن إنسان ما، بأى ثمن ! » .

— أنت إذن لا تؤمنين بالحب ؟

— أو لست أحبك أنت ؟

قالتها ولطمتنى مداعبة بطرف قفازها على أنفى ..

نعم ، لقد جعلت « زينايدا » منى ملهاتها .. ظللت ثلاثة أسابيع أراها كل يوم ، فرأيت منها عجباً !.. ولم تكن تأتى إلى بيتنا إلا نادراً ، فحمدت لها ذلك ، ففى بيتنا كانت تصطنع الوقار والاتزان .. وبرغم ذلك لم ترض أمى عنها ، بل ظلت ترقبها وإياى بعين لا تغفل . أما أبى فلم أكن أحسب حسابه كثيراً . فقد كان يتركنى وشأنى .. وهكذا طلقت كتبى ودراساتى ، بل طلقت نزهاتى الخلوية ورياضتى المحببة : ركوب الخيل . صرت كالحشرة المربوطة من ساقها . أدور وأدور حول محور واحد ، هو بيت زينايدا . وأحياناً كنت أتسلق حائطاً مهدماً يشرف على حديقتنا ، فأجلس فوقه ساعات أحدق فى الفضاء ، ولا أرى شيئاً .. يغمرنى إحساس عجيب ، سخى بالعواطف والانفعالات : بالكآبة ،

والبهجة ، والتفكير فى المستقبل ، وحب الحيـاة ، والخوف من الحيـاة !

واستمرت « زينايدا » تلعب معى لعبة القط والفأر ! كانت تغازلنى وتتودد إلى حتى تثور عواطفى ومشاعرى .. وفجأة تتنكر لى فلا أجرؤ على أن أقترب منها ، أو حتى أنظر إليها !.. وأذكر أننى لمست منها بروداً دام عدة أيام ، حتى تحطمت أعصابى .. وذات يوم كنت أتمشى فى الحديقة بجوار السور الفاصل بيننا ، فرأيت « زينايدا » جالسة فوق الحشائش متكئة بمرفقيها على الأرض ، بلا حراك .. وفجأة رفعت رأسها ورأتنى ، فأومأت إلى برأسها إيماءة آمرة لم أفهم قصدها منها ، فتريثت حائراً .. حتى كررت إشارتها ، فقفزت فوق الســور ، وعدوت نحوها فرحاً .. وإذا هيئتها تصدمنى . كانت شاحبة شحوباً مخيفاً ، يبدو على وجهها الألم الدفين والعذاب المر ، فسألتها وقد انفطر قلبى : « ماذا بك؟ ». فدت يدها واقتلعت بضعة أعشاب من الأرض عضتها بأسنانها فى عصبية ثم ألقتهـا بعيداً .. وأخيراً خرجت عن صمتها فسألتنى : « أنت تحبنى كثيراً ، أليس كذلك ؟ » .

لم أجب .. فما جـدوى الجواب ؟.. وإذ ذاك أردفت وهى ترمقنى بنظرة فاحصة « بلى ! » .. ثم شرد فكرها برهة ، وأخفت وجهها بين يديهـا ، وعـادت تقول هامسة : « كل شىء صـار يضـايقنى . كان خير لى أن أذهب إلى أبعـد أقطار الأرض ، من أن أقاسى هذا . لم أعد أحتمل . لم يعد فى طوقى التغلب على همى .. إننى ضائعة ، يا إلهى إننى ضائعة ..! » .

فألحفت فى السؤال : « لمـاذا .. ماذا جرى ؟ » .

لكنها لم تجب ، وإنمـا اكتفت بهز كتفيها .. فظللت أحـدق فيها والكآبة تعصر قلبى . لقـد فطرته كلماتهـا .. ولكم تمنيت فى تلك اللحظة أن أضحى بحيـاتى لو كانت فى ذلك منجـاتهـا من شجنهـا !؟

وكان الهواء يهمس لأوراق الشـجر ، ويؤرجح الأغصـان فوق رأس زينايدا .. وهديل الحمائم وطنين النحل يملآن الآذان .. والشمس فى علاها تشرق على سماء صافية .. فاتكأت الفتـاة على مرفقها وقالت لى : « اقرأ لى شيئاً من الشعر ، فأنا أحب طريقتك فى إنشاده .. ولكن اجلس أولا » .

جلست .. ثم قرأت عليها قصيدة « فوق تلال جورجيا » .. فأوقفتنى عنـد بيت أعجبهـا وجعلت تكرر نصه ساهمة ، كأنمـا تحدث به نفسها : « لن يستطيع القلب أن يختار غير الحب » .. وفجأة نهضت واقفة وقالت لى : « هيا بنا ، فإن (ميدانوف) فى الداخل مع ماما .. لقـــد نظم لى قصيدة .. وهجرته .. ولا بد أن ذلك جرح إحسـاسه . ولـكن ماذا كان بوسعى أن أفعل . أنك ستفهم هذه المواقف يوماً .. فلا تغضب منى ! » .

ثم ضغطت يدى على عجل ومضت تعـدو صـوب البيت ،

وأنا خلفها .. وهناك تلا علينا ميدانوف أحدث قصائده التى نشرت ، فلم أفهمها . كان يقرأ شعره بصوت كالجرس ، لكنى لم أسمع إلا ضجيجاً !.. كنت منهمكاً فى مراقبة زينايدا ومحاولة استخلاص مغزى كلماتها الأخيرة .. وأفقت على صوت الشاعر يتلو هذا البيت : « لعل غريماً مجهولا قد فاجأك وسيطر على قلبك ! » .. وفى هذه اللحظة التقت عيناى وعينا « زينايدا » ، فأطرقت إلى أسفل وتضرجت وجنتاها .. وإذ ذاك انتابنى لون من الرعب أثلج أطرافى .. لقد ذقت طعم الغيرة عليها من قبل ، ولكن فى تلك اللحظة فقط ومض فى رأسى احتمال أن تكون قد وقعت فى شراك الحب .. فهمست لنفسى فى انزعاج : « يا إلهى .. إنها عاشقة ! » .

– ٩ –

● ومنذ تلك الساعة بدأ عذابى الحقيقى . أرهقت ذاكرتى وذهنى ، وقلبت الأمر على وجوهه ، محاولا الاهتداء إلى اسم معشوقها المحظوظ ، ولكن عبثاً .. ففرضت عليها رقابة صارمة فى الخفاء ، وهدتنى رقابتى إلى مدى التغير الذى طرأ على الفتاة . بدأت تخرج للمشى وحدها ، مسافات طويلة .. وأحياناً كانت تمتنع عن مقابلة الزائرين ، وتلوذ بغرفتها لا تبرحها .. فجعلت أستعرض المعجبين بها واحداً بعد واحد ، سائلا نفسى : « ترى هل هو هذا ، أم هو ذاك ؟ » وانتهيت من تفكيرى إلى ترجيح أن يكون غريمى هو

الكونت ماليفسكى ، وإن كنت قد خجلت من أن أفاتح زينايدا فى أمره ..

ولم تكشف لى رقابتى عن أبعد من أننى ، على أنها انكشفت للبعض ، وفى مقدمتهم الدكتور لوشين ، لكنه لم يحدثنى فى الأمر .. وكان هو قد تبدلت أطواره أيضاً ، فنحل جسمه وصارت ضحكته جوفاء قصيرة ، وصار يثور لأتفه سبب ، بل إنه كف حتى عن سخريته اللاذعة المعتادة ..

وذات يوم جمعتنا غرفة فى بيت زينايدا ، هو وأنا وحدنا ، فقال لى : « أراك تكثر من التردد على هذا البيت أيها الفتى ، أليست عليك واجبات مدرسية تحضرها ؟ » .. فأجبته فى شىء من الجفاء : « ومن أدراك أننى لا أنجزها فى بيتى ؟ » .

– على أية حال لست ألومك على ما تفعل ، فإنه شىء طبيعى ومألوف فى مثل سنك .. لكنك سيىء الحظ فى اختيارك . ألا تعرف حقيقة هذا البيت ؟

– لست أفهم قصدك ..

– هذا أمر يؤسف له أيضاً . لكنى أجد من واجبى أن أحذرك ، فاصغ إلى يا فتى . إن العزاب القدامى ، مثلى ، يستطيعون التردد على هذا البيت من غير أن يصيبهم أذى ، فقد تبلدت قلوبنا ، وما من شىء يؤثر فيها .. أما أنت فقلبك ما يزال فجاً ، وهذا الجو يؤذيك ، صدقنى ..

– كيف ؟

– ماذا .. هل أنت فى خير حال الآن ، هل أنت طبيعى .. وهل ما تحس به فى صالحك ؟

– ما هو هذا الذى أحس به ؟.

– آه يا فتى .. ما جدوى الإنكار والمراوغة ووجهك يظهر ما يبطن قلبك ؟.. ولكن ما فائدة الكلام ؟.. أنا نفسى ما كان لى أن أدخل هذا البيت ، لولا .. لولا أنى مخلوق غريب الأطوار !.. والذى يدهشنى حقاً أن شاباً فى مثل ذكائك لا يدرك ما يدور حوله ..

– وماذا يدور حولى ؟

– كأنما أنت تجهله .. دعنى إذن أقوله لك . صدقنى إن « الجو » هنا لا يناسبك .. قد يكون الهواء معطراً، لكنه خانق !.. نعم ، خذ نصيحتى وعد إلى درسك ..

وهنا أقبلت الأميرة العجوز ، وبدأت تشكو للطبيب ألم أسنانها .. ثم ظهرت فى أثرها زينايدا !.. فقالت الأم : « على فكرة ، يجب أن تؤنبها يا لوشين ، إنها تشرب ماء مثلوجاً طيلة اليوم . فهل هذا يناسب صحتها ، مع ما تعلمه عن ضعف صدرها ؟ » .

– لماذا تفعلين ذلك يا فتاتى ؟

– وماذا فيه يا طبيبى ؟

– قد تصابين ببرد وتموتين !

– ليت ذلك يحدث حقاً ..

– يا لها من فكرة بارعة !

– ولم لا ، هل الحياة تساوى كل هذا العناء ؟

– إنك كعهدى بك دائماً ، تتلخص طبيعتك فى كلمتين : نزوات ، وعدم شعور بالمسئولية !

– فليكن .. وأنت يا مسيو فولدمار ، لا تنظر إلى هكذا ، لست أحتمل أن يرثى الناس لحالى ..

ثم خرجت لتوها من الغرفة ، فالتفت إلى « لوشين » وقال : « دعنى أقول لك مرة أخرى يا فتى : إنه جو لا يصلح لك ! » .

– ١٠ –

● وفى مساء اليوم نفسه اجتمع أصدقاء زينايدا فى بيتها كالعادة ودار النقاش حول قصيدة « ميدانوف » ، فأبدت الفتاة إعجابها البالغ بها ، ثم قالت معقبة : « ولكن .. أتعلم ماذا كنت أفعل لو كنت شاعرة ؟.. كنت أختار موضوعات أخرى لقصائدى .. فأصف مثلا جماعة من الفتيات فى قارب يسبح بهن فوق مياه نهر ساكن ، والقمر فى أوجه ، وكلهن يرتدين ثياباً بيضاء ويحلين صدورهن بأزهار ضاحكة ، ويغنين أعذب الأغانى .. حتى يصلن إلى الشاطئ فتستقبلهن فرقة من الراقصات بالمشاعل والغناء والضحكات .. ولكن .. إن صدرى منقبض ، فدعونا نتسلى

بمسابقة « التشبيهات » (ومن مقتضاها أن يقترح أحدهم موضوعاً ما ، فيتسابق الجميع فى مقارنته بشىء يشبهه . والفائز هو صاحب أبرع وأدق تشبيه !) .

واتجهت زينايدا إلى النافذة ، وكانت الشمس تنحدر نحو المغيب ، وقد انتثرت فى الجو رقع من السحاب الأحمر ، فقالت الفتاة : « ماذا تشبه هذه السحب ؟ » وقبل أن يفكر الباقون فى جواب استطردت هى مجيبة : « أعتقد أنها تشبه الأشرعة القرمزية التى كانت تسير سفينة « كليوباترة » الذهبية حين أبحرت بها لتقابل حبيبها أنطونى .. أتذكر يا ميدانوف يوم رويت لى قصتها ؟ » .

وأجمعت كلمتنا على أن أحداً منا لم يكن يستطيع أن يهتدى إلى تشبيه أروع من هذا ، فعادت زينايدا تتساءل : « وكم كان عمر أنطونى إذ ذاك ؟ » .. فقال مالفسكى : « كان شاباً بلا شك » وأيده ميدانوف قائلا : « نعم كان فى أوج شبابه » .. وهنا تدخل لوشين مصححاً : « كلا أيها السادة ، بل كان قد جاوز الأربعين ! » .

« جاوز الأربعين ؟ » رددت زينايدا عبارته فى شرود ..

وبعد قليل انفض الجمع ، فعدت إلى بيتى وشفتاى ترددان بلا وعى : « إنها عاشقة .. ولكن لمن ؟ » .

— ١١ —

● ومرت الأيام .. وازدادت أطوار زينايدا غرابة وشذوذاً .. وذات يوم ذهبت للقائها . فوجدتها جالسة فوق مقعد ومتكئة

برأسها على منضدة .. فلما أحست بدخولى رفعت وجهها ، وإذا هو قد تندى كله بالدموع . لكنها اغتصبت ابتسامة ، وقالت لى : « أهو أنت ؟ .. تعال » .. فاقتربت منها ، وإذ ذاك وضعت يدها على رأسى ، وفجأة جذبت شعرى بشدة ، حتى صحت برغمى : « إنك تؤلميننى » .. فقالت شامتة : « آه ، وهل لا يوجد ما يؤلمنى أنا ؟ » .. ثم صاحت نادمة وقد تبينت أنها انتزعت فعلا بعض شعرات من رأسى : « أواه ، ماذا فعلت بك يا فولدمار يا مسكين ؟ » .. ولفت الشعرات على أصابعها بانتظام ثم قالت والدموع تلمع فى عينيها : « سوف أضع هذا التذكار من شعرك فى أيقونة ألبسها فى رقبتى .. فلعل هذا يعزيك بعض الشىء .. والآن ، وداعاً ! » .

وتركتنى ، فعدت أدراجى إلى البيت .. وهناك وجدت أمى تعنف أبى بشدة من أجل شىء لم أعرفه ، بينما ظل هو كعادته هادئاً صامتاً لا يجيبها بكلمة ، ثم تركها ومضى . وبعد خروجه أنبتنى على زياراتى المتكررة لبيت الأميرة « القديرة على كل شىء » كما وصفتها .. فقبلت يدها كى أنهى الموقف ولذت بغرفتى .. لكنى لبثت عاجزاً عن التفكير . كانت دموع زينايدا قد فطرت قلبى ، حتى لقد أحسست بميل إلى البكاء .. ولم لا أبكى ، ألست طفلا ، فى السادسة عشرة ؟؟

وذات يوم ..



فنظرت إلى أسفل . كانت زينايدا فى ثوبها الرمادى البسيط تمرق فى الممر ..

وأنا فى جلستى المعتادة فوق الحائط ، أو « برج المراقبة » ، الذى يشرف على حديقة الأميرة ، أحدق فى الفضاء وأنصت إلى أجراس الدير القريب ، انتابنى ذلك الإحساس الغامض بوجود شخص بالقرب منى ، فنظرت إلى أسفل . كانت زينايدا فى ثوبها الرمادى البسيط تمرق فى الممر الذى تحتى ، فلما رأتنى توقفت ورفعت طرف القبعة « القش » العريضة التى ترتديها ثم نظرت إلى بعينيها المكسوتين بالقطيفة : « ماذا بربك تفعل فى علاك ؟.. هيا .. إنك دائماً تصارحنى بحبك ، فإذا كنت صادقاً فاقفز من مكانك إلى ! » .. وقبل أن يضيع صدى كلماتها كنت أطير فى الهواء إليها ، كأن يداً قوية دفعتنى من الخلف .. وكان ارتفاع الحائط أربعة عشر قدماً ، فلم أكد ألمس الأرض بقدمى حتى سقطت عند قدميها فاقد الوعى .. وحين عدت لوعيى ، وقبل أن أفتح عينى ، شعرت بزينايدا منحنية فوقى ، تقول فى صوت تبين فيه الرقة والانزعاج : « طفلى العزيز ، كيف فعلتها .. كيف أطعتنى .. أنت تعلم كم أحبك .. هيا وانهض » .

وكان صدرها لصق صدرى ، ويداها تحتضنان رأسى .. وفجأة بدأت شفتاها الناعمتان الغضتان تغطيان وجهى بالقبل .. ثم انطبقتا على شفتى .. ولعل الفتاة أدركت فى تلك اللحظة ، من تعبير وجهى ، برغم بقائى مغمض العينين ، أنى قد أفقت من إغمائى .. فنهضت واقفة وهى تقول : « هيا ، انهض أيها الفتى العابث ..

لماذا ترقد هكذا فوق التراب ؟ » .. فوقفت على قدمى . بينما استطردت هى : « لا تنظر إلى هكذا .. يا للعبث . إنك لم تصب بسوء .. فامض إلى بيتك واغسل وجهك .. وإياك أن تتبعنى ، وإلا غضبت منك و .. » .

ولم تتم جملتها . بل مضت فى طريقها .. فجلست على الرصيف أرقبها ببصر شارد !

- ١٢ -

● فى اليوم التالى صحوت مبكراً . وكان الطقس جميلا منعشاً ، فخرجت أرتاض فى ضواحى المدينة . تسكعت طويلا فوق التلال وخلال الغابات . ثم اضطجعت فوق الحشائش . وشردت .. استعدت فى خيالى حادث الأمس . وكلمات زينايدا التى لا تنسى ، وقبلاتها ! لكن أعذب ما جال بخاطرى أن الفتاة لن تستطيع بعد الآن أن تنكر شجاعتى . بل بطولتى .. وهمست لنفسى : « إنها قد تفضل سواى . لكن سواى يكتفى بالقول : إنه (سوف) يفعل من أجلها كذا وكذا . أما أنا فقد فعلت .. وأى شىء أتردد فى أن أفعله من أجلها ؟ » .. وجمح خيالى فتصورت نفسى أنقذها من يد الأعداء ، وأنتزعها بالقوة من السجن .. حتى بسيل دمى . وأستشهد عند قدميها !

ثم نهضت على قدمى . واستأنفت طوافى فى الغابة .. حتى تنبهت إلى أن موعد الغداء قد اقترب . فأردت اختصار المسافة

الباقية بالعودة من طريق آخر قصير ، عبر ممر رملى ضيق ، فدلفت إليه .. لكنى لم أكد أسير فيه خطوات حتى طرق سمعى صوت حوافر جياد آتية من ورائى ، فالتفت ناحيتها بحركة غير إرادية .. وإذا أنا أرى جوادين مقبلين جنباً إلى جنب ، تبينت فى راكبيهما زينايدا ووالدى .. فاختبأت كى لا يريانى ، وحين مرا بمحاذاتى لحظت على وجه الفتاة شحوباً شديداً !

وضاعفت من سرعة خطاى حتى بلغت البيت ، فوجدت والدى جالساً بجوار والدتى — وقد أبدل ثيابه وغسل وجهه — يقرأ لها مقالا فى إحدى الصحف بصوته الموسيقى الناعم وهى تبدو غير مصغية .. فلما رأتنى سألتنى غاضبة : أين قضيت النهار ، وفى صحبة من ؟.. وكنت على وشك أن أجيبها بأنى كنت أتنزه بمفردى ، لكنى وجدت نفسى أنظر إلى أبى وألزم الصمت .. لست أدرى لماذا !

- ١٣ -

● ومضت خمسة أيام أو ستة لم أر فيها زينايدا إلا لماماً ، فقد كانت مريضة — وإن كان هذا لم يمنع « فرقة المعجبين » من التردد عليها كل يوم للسؤال عنها ! — وفى تلك الفترة لحظت أنها بدأت تتجنبنى ، وتضيق بوجودى .. ومع أن مسلكها قد سحقنى وأشقانى ، فإنى آثرت أن أنفذ رغبتها وأبتعد عن طريقها ، مكتفياً بمراقبتها من بعيد ، ورصد الشواهد المتعددة على مبلغ التغير الذى طرأ عليها !

وذات صباح التقينا مصادفة فى الحديقة . فهممت بأن أدير لها ظهرى مبتعداً عن طريقها .. لكنها أوقفتنى ، وقالت : « أعطنى ذراعك .. منذ متى لم نتحدث معاً ؟ » .

واسترقت نظرة إليها . كانت عيناها مفعمتين بضياء ناعم ، وجهها كأنما يبتسم من خلال ضباب .. فسألتها : « أما زلت متوعكة الصحة ؟ » فأجابتنى وهى تقطف وردة حمراء : « كلا . لقد انتهى كل ذلك ، ولم أعد أشعر بغير قليل من التعب ، سوف يزول .. » فعدت أسألها : « وحين يزول .. هل تعودين كما كنت فى الماضى ؟ » .. فرفعت الوردة إلى أنفها . وانعكس ظلها الأحمر على وجنتيها ، ثم قالت : « وهل تغيرت ؟ » .

— نعم ، تغيرت كثيراً ..

— أعلم أنى عاملتك أخيراً بشىء من البرود ، ولكن .. لا تفكر فى ذلك، فإنه يحدث بالرغم منى . دعنا من هذا الموضوع ..

— أنت لا تريدين أن أحبك .. هذا هو الواقع !

— بل أحببنى . ولكن بطريقة أخرى ..

— وكيف ؟

— لنكن صديقين .. أصغ إلى . أنت تعلم أننى أكبرك فى السن ، بحيث أصلح لأن أكون عمتك — أو أختك الكبرى على الأقل — بينما أنت ..

— أنا فى نظرك طفل !

— نعم ، ولكن طفل عزيز ذكى أحبه كثيراً . أتعلم ؟ منذ هذه اللحظة أخلع عليك لقب « فارسى » ! ولا تنس أن الفارس يلازم فى العادة سيدته ، وهاك عربون ودى ..

قالتها ورشقت وردتها الحمراء فى عروة سترتى .. فقلت مغمغماً : « لقد أوليتنى مرة جميلا (أجمل) من هذا ! » .

— آه ، يا لذاكرتك .. على أى حال أنا مستعدة ..

ثم طبعت على « جبينى » قبلة هادئة .. واستدارت مبتعدة وهى تقول : « اتبعنى يا فارسى » .

.. وتبعتها !

- ١٤ -

● وفى تلك الليلة التأم الجمع فى بيتها كالمعتاد ، وابتكرت هى لعبة السهرة كما جرت العادة ، لكنها لم تكن فى هذه المرة يانصيباً أو مسابقة التشبيهات ، وإنما كان موضوعها أن يقص كل منا أغرب حلم رآه فى منامه .. وكالعادة كان حلمها هو الفائز ، قالت : « رأيت قصراً فخماً ، يموج بالراقصات والراقصين ، فى إحدى ليالى الصيف .. وكانت ربة القصر الداعية إلى الحفلة ملكة شابة ، والقصر قد تلألأ بالأنوار ، والذهب ، والمرمر ، والبللور ، والحرير ، والماس ، والأزهار ، والعطور ، وكل نزوات الترف .. وكان ضيوف الحفلة كلهم من الشبان

المتأنقين الشجعان . وكلهم متيم بالملكة الشابة متدله فى هواها .
ينظم القصائد فى التشبيب بها ويكيل لها عبارات الغزل والإطراء ..
وهى تنصت لغزلهم . وتصغى للموسيقى . لكنها لا تعبأ بشخص
منهم . أو يحظى أحد بإعجابها !.. وكانت بالقاعة ست نوافذ
عالية تمتد بين الأرض والسقف . مفتوحة كلها على الحديقة
المظلمة ، بأشجارها الضخمة . والسماء الصافية بنجومها المضيئة ..
فأطلت الملكة منها على نافورة بيضاء فى وسط الحديقة ، يختلط
خرير مائها بأنغام الموسيقى وضجيج الحاضرين .. ثم خاطبت
مدعويها قائلة : « أنتم جميعاً أيها السادة نبلاء ، أذكياء ، أثرياء ،
تحفون بى . وتبدون استعدادكم للموت عند قدمى ، ولكن ما حيلتى
فى قلبى .. إن الذى أحبه ، ويملكنى فى يمينه ، ليس بينكم . إنه
ينتظرنى فى الخارج ، بجوار النافورة .. وهو لا يملك مالا ولا جاهاً
ولا يعرفه أحد . لكنه ينتظرنى ، واثقاً من ذهابى للقائه ..
وسأذهب لألقاه . وما من قوة تستطيع أن تحول بينى وبينه حين
أريد أن أهرع إليه ، وأبقى معه ، ونضيع معاً فى ظلام الحديقة ،
تحت همس الأشجار . وفى ظلال النافورة ..! » .

وفرغت زينايدا من سرد حلمها العجيب ، فتناوله الأصدقاء
بالتعليق والتفنيد .. حتى انقضت السهرة وقد انتصف الليل .
فتفرقنا كل إلى بيته ..

لكنى عبثاً حاولت أن أنام فى تلك الليلة . ظللت أتقلب على
سعير ، من جنب إلى جنب ، ومن خد إلى خد ، أقلب قصة
زينايدا على شتى وجوهها ، محاولا استخلاص مغزاها ، وأنا أهمس
لنفسى : « ترى من هو . رجل النافورة ؟.. وأى ثمن لا أدفعه
كى أكون ذلك المحظوظ ؟ » واشتعل دمى فى عروقى وغلى ،
فجعلت أهذى : « الحديقة .. النافورة .. سأخرج إلى الحديقة . » .

وخرجت فعلا.. ارتديت ثيابى على عجل وانسللت من البيت .
كان الليل حالكاً ، والهواء ساكناً ، فمضيت أذرع ممرات الحديقة
على غير هدى ، ووقع قدمى يتبعنى ويخيفنى .. ثم وقفت ، وأصخت
السمع ، وانتظرت .. فلم أسمع غير دقات قلبى السريعة العالية .
وفجأة خيل لى أنى أرى شبح امرأة ، فمددت عينى فى الظلام ،
وحبست أنفاسى .. ماذا ، هل أسمع صدى خطوات ،
أم نبضات ؟.. أضحكة مكتومة ، أم حفيف أوراق الشجر ،
أم آهة قلب مكلوم ؟.. وأحسست بالخوف والرعب ، فناديت
بصوت لم أسمعه أنا : « من هناك ؟ » .. وهبت نسمة هواء ،
وهوت نجمة من السماء ، فأردت أن أصرخ : « زينايدا » !
لكن الصيحة ماتت على شفتى .. وعاد الصمت والسكون يلفان
الكون حتى الضفادع كفت عن نقيقها !

وأخيراً عدت يائساً إلى غرفتى ، وفراشى البارد، لأستأنف
عراكى مع نفسى من جديد !

- ١٥ -

● واستيقظت فى اليوم التالى والـكابوس ما يزال يملأ رأسى .. فخرجت أتمشى فى الحدائق . وصادفت الكونت مالفسكى .. يا للئيم ! لم يكد يرانى حتى قال بخبثه المعهود وسخريته : « أهكذا يترك الفارس مليكته تغيب عن بصره ورقابته .. إنك مهمل يا صاح وإلا لما قصرت فى حراسة مولاتك ، نهاراً أو .. ليلا ! » .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أنسيت الحديقة ، والليل ، والرجل عند النافورة ؟

ثم ضحك وأدار ظهره لى .. بعد أن نفذت كلماته إلى قلبى كالسم حين يسرى فى العروق ، فاندفع الدم إلى رأسى وهمست لنفسى : « إذا كان الأمر كذلك .. فويل لمن يقع فى يدى ، سوف أثبت للجميع ، وللخائنة ، أننى أستطيع أن أنتقم لنفسى ! » .

وهرعت إلى غرفتى . فأخرجت من أحد الأدراج سكيناً حادة كنت قد اشتريتها حديثاً ، وتحسست حدها .. ثم دسستها فى جيبى وقد شعرت بقلبى ينتفض غضباً ، ويرزح تحت ثقل كالحجر !.. وطوال اليوم جعلت أروح وأجىء فى البيت ، وأنا أتحسس بيدى السكين التى فى جيبى ، كمن يتهيأ لحدث رهيب..

وشغلتنى هذه المشاعر والانفعالات عن كل ما عداها ، حتى عن التفكير فى « زينايدا » نفسها .. ولحظت أمى انشغالى ومظهر « البطولة » الذى أتقمصه ، فقالت لى ونحن على مائدة العشاء :

« مالك تبدو مهموماً شارداً ؟ » فأجبتها بابتسامة غامضة وأنا أقول لنفسى : « آه لو يعلمون ! » .. ودقت الساعة الحادية عشرة ، فمضيت إلى غرفتى ، لـكننى لم أخلع ثيابى ، وإنما لبثت أنتظر منتصف الليل بصبر نافد !

وأخيراً دقت الساعة مرة أخرى ، فحركت يدى فى حماس : « لقد حانت الساعة ! » وهبطت إلى الحديقة .. وكنت قد اخترت أثناء النهار مكان المراقبة الذى أكمن عنده ، وكانت شجرة صنوبر كثيفة بجوار السور ، فاتجهت إليها وأسندت ظهرى إلى جذعها ، وانتظرت !.. كانت الليلة ساكنة كسابقتها ، بل أكثر منها صفاء. وكانت الدقائق الأولى من فترة الانتظار مملة مرهقة ، فجعلت أتخيل فيها ما سوف أفعله وأقوله لغريمى : هل أصيح به « قف ، إلى أين أنت ذاهب ؟ سلم نفسك أو أقتلك ! » .. أم أغمد السكين فى صدره دون إنذار ؟

.. وبدت لى كل حركة بين الأغصان ، وكل صوت ، غير مألوف .. لكن ساعة انقضت بلا جديد ، فبدأ دمى يهدأ ويبرد ، وبدأت أشعر بحماقتى ، وبأن مالفسكى إنما هزأ منى !.. فتركت مكمنى ورحت أجول فى الحديقة . كان السكون شاملا ، وكل الكائنات قد هجعت . حتى كلبنا قد أخلد للنعاس .. فتسلقت أطلال الحائط المهدم وسرحت الطرف فى الفضاء العريض الذى أمامى ، وتذكرت لقائى مع زينايدا .. فاستغرقتنى الأحلام !

وفجأة خيل إلى أنى سمعت صوتاً غير عـادى ! صوت باب يفتح ثم يغلق . ثم خطوات خفيفة متلصصة تقترب .. فقفزت من مكانى وقد عاودنى نشاطى . وكمنت فى ظل الحائط .. « ها هو ذا يظهر .. أخيراً » واستللت السكين من جيبى . وفتحتهـا .. ورقص لون الدم أمام عينى . وانتفض شعر رأسى خوفاً وغضباً .. والخطوات مقبلة نحوى .. فتحفزت للانتضاض على غريمى . ومر الرجل بمحاذاتى .. !

يا إلهى .. إنه أبى ! ! !

وفى طرفة عين تحول « عطيل » الغيور . المتأهب للقتل .. إلى تلميذ مدرسة . خـائف . خجول !.. وألهتنى حـدة المفاجأة عن تتبعه ببصرى . وسقطت السكين من يدى على الحشائش . فلم أعبأ حتى بالبحث عنها . من فرط خجلى من نفسى !

وفيما أنا عائد إلى البيت عرجت على مقعدى المختار بالحديقة ، ورفعت بصرى إلى نافذة « زينايدا » . كانت مفتوحة . والغرفة مظلمة إلا من النور الأزرق القاتم المنعكس عليها من عتمة الليل .. وعلى حين بغتة أسدلت على النـافذة المفتوحة ستارة بيضـاء ، حجبت داخلها عن الأنظار .. !

« ولكن لمـاذا .. وما معنى هـذا ؟ » أخـذت أسـائل نفسى حين تمددت على فراشى : « أهو حلم . أم وهم . أم حقيقة ؟ » . .

وكانت الفروض التى صعدت مع الدم إلى رأسى ، رداً على تساؤلى غريبة جديدة على .. بحيث لم أجرؤ على مجرد التفكير فيها !

- ١٦ -

● وصحوت فى الصباح وبى صداع شديد فى رأسى .. وكانت انفعالات اليوم السابق قد تبخرت ، وحل محلها شعور بالانقبـاض والكآبة لم أعهده من قبل . وكأن شيئاً فى قد مات نهائياً !.. وعلى مائدة الإفطار استقرت نظرة منى على أبى . كان هادئاً كعـادته .. لكنه لم يتبسط فى الحديث معى ، بل نسى أن يلقى إلى تحية الصباح !

وبعد قليل ذهبت للقاء « زينايدا » . وفى عزمى أن أصـارحها بمـا رأيت .. لـكنى جبنت ! وفى المسـاء ، بينما كنت منفرداً بنفسى فى ركن من الحديقة . جاءت تبحث عنى .. وسألتنى عن سبب كآبتى . فانهمرت دموعى فجأة بغزارة أزعجتها ، فألحت على : « ماذا بك يا عزيزى (فولوديا) — وكانت تلك أول مرة تدللنى فيها بهذا الاسم ! — ماذا بك .. أجب ! » لكنى لم أجب . ولم أكف عن البكاء . فهمت بأن تقبلنى فى وجنتى المبللة ، لولا أن أشحت بوجهى عنها وأنا أقول بصوت متقطع خلال نشيجى : « إنى أعرف كل شىء . فلماذا تعبثين بى ؟ » .

— أنا الملومة حقاً .. كم من بذور الشر والخطيئة !.. لـكنى لست ألهو بك الآن . وإنمـا أنا أحبك حقاً . لسبب لا يخطر على بالك .. ولكن خبرنى أولا . ماذا عرفت ؟

ماذا كنت أستطيع أن أقوله لها ؟.. وقفت فى مواجهتى ونظرت إلى ، وللحال صرت ملك يمينها من رأسى إلى قدمى !.. وبعد ربع ساعة كنت ألعب معها لعبة « الاستغماية » وأنا أصيح متهللا كلما أفلحت فى اقتناصها من خصرها .. وكانت دموعى تتساقط بين الحين والآخر ، ولكن من فرط فرحتى !

- ١٧ -

• قد أجد صعوبة لو حاولت وصف مشاعرى خلال الأسبوع التالى .. فقد قضيته فريسة لنوع من الحمى النفسية ، اختلطت فيها كافة ألوان الأحاسيس العنيفة المتناقضة ، والأفكار ، والشكوك ، والآمال ، والآلام !.. فعشت أيامى كالمحكوم عليه بالإعدام الذى يريد أن يظفر من الدنيا بأقصى ما فيها ، هارباً من ذكرياته ، متجاهلا ماضيه وآتيه ، مستغرقاً فى حاضره فقط !.. حتى عدت إلى البيت يوماً قبيل الغداء ، فقيل لى : إن أبى قد خرج بغير أن يتناول طعاماً ، وأن أمى معتكفة فى غرفتها لا تريد أن تأكل شيئاً !.. وتبينت على وجوه الخدم تجهماً غير عادى ، فسألت أصغرهم - وكان يحبنى بصفة خاصة - عما حدث .. فقص على أن أمى قد اشتبكت مع أبى فى نقاش حاد ، اتهمته فيه بخيانتها والوقوع فى هوى الأميرة الشابة ، فدفع التهمة عن نفسه طويلا حتى فقد اتزانه أخيراً فأهانها بكلمة جارحة عرض فيها بكبر سنها..

فأجهشت أمى بالبكاء .. ثم أضاف الخادم إن سبب الفضيحة كلها خطاب بغير توقيع استلمته الزوجة .. من مجهول !

قابلت النبأ بوجوم ، ثم صرفت الخادم وأويت إلى فراشى . لم أبك أو أستسلم لليأس ، أو أسأل كيف ومتى حدث ذلك ، وكيف لم أستنتجه من قبل .. بل إنى لم ألم أبى فى قلبى .. فقد كانت « الفاجعة » بالنسبة لى أفدح من أن يجدى فيها شىء من ذلك .. كان معناها النهاية !

وفى اليوم التالى أعلنت أمى عزمها على العودة إلى المدينة ، وبعد أن اختلى أبى بها فترة فى غرفتها بدأت تعد معدات السفر فى هدوء ، وأدركت أنهما قد اتفقا على عدم إثارة فضيحة علنية . وفى المساء حضرت مشهداً غريباً . رأيت أبى يقتاد الكونت مالفسكى من ذراعه فى الردهة ثم يقول له ، أمام كبير الخدم ، ببرود مثير : « منذ بضعة أيام أريتك طريق الباب ، واليوم أرانى مضطراً ، لأن أنذرك بأنك لو طرقت بابى مرة أخرى فسوف أقذف بك من النافذة .. فلست أحب الخط الذى تكتب به خطاباتك ! » .

إذن فهو الذى أرسل إلى أمى ذلك الخطاب الذى بغير توقيع ؟

وتقاذفتنى الخواطر : كيف عرضت الأميرة الشابة سمعتها ومستقبلها للضياع ، وماذا كانت تأمل وهى تعلم أن أبى متزوج وليس حراً ؟.. لكنه الحب ، والتفانى ، والتكريس !

واستقر رأيي على وجوب زيارة زينايدا ، لتوديعهـا قبل سفرنا .. فانتهزت فرصة مناسبة وقصـدت إلى بيتها .. واستقبلتني أمها استقبالا فهمت منه أنها لم تقف على فضيحة ابنتها . ثم دخلت زينايدا الغرفة شاحبة الوجه ، ترتدي ثوباً أسود . وقد أرسلت شعرها على كتفيها في إهمال .. وبغير أن تنطق بكلمة قادتني من يدي إلى غرفتها وهناك قالت لي : « لقد سمعت صـوتك فسعيت إليك .. أهكذا سهل عليك أن تتركنا يا شقي ..؟ » .

ـ لقد جئت لأودعك يا سمو الأميرة ، ربمـا إلى الأبد !

ـ أشكرك .. لكني أرجو ألا تسيء الظن بي في قلبك .. ربمـا أكون قد عذبتك أحياناً ، ولكن ثق بأني لست الفتاة المستهترة التي تتصورها !

ـ صدقيني يا زينـايدا أنك مهما فعلت بي ، فلسوف أظل مقيماً على حبك حتى آخر أيامي ..!

فاستدارت إلى بحركة سريعة ، فاتحة ذراعيها .. ومنحتني قبلة عاطفية ملتهبة ، الله يعلم من قصدت بها ، لكني على أية حـال تذوقت عذوبتها كاملة ، عالماً أنها الأولى والأخيرة ، وأنها لن تتكرر قط !.. ثم انتزعت نفسهـا مني وخرجت لا تلوي على شيء .. وخرجت أنا إلى بيتي نهباً لانفعـال لا يمكنني وصـفه ـ ولا أتمنى أن يعاودني ـ ولو أني كنت أكون سيء الحظ لو لم أجربه قط في حياتي !

ثم عدنا إلى موسكو ، فبـدأ جرحي يلتئم في بطء شـديد .. فإني لم أستطع أن أنفض عني غبار المـاضي وأعود إلى دراستي إلا بعد مجهود عنيف . أما شعوري نحو والدي فلم يسوء عن ذي قبل ، أو يطرأ عليه أي تحامل ، أو حقد ، أو لوم .. بل إنه على العكس صار أدنى إلى قلبي وأحب إلى نفسي !.. وليفسر علماء النفس هذه الظاهرة كما يحلو لهم !

ـ ١٨ ـ

● وكان والدي قد اعتاد بعـد عودته إلى العاصمة أن يرتاض على ظهر جواده كل يوم .. وذات صباح طلبت منه أن يسمح لي بمصاحبته على جوادي ، فتردد لحظة ثم قبل .. وخرجنا معاً إلى ضاحية المدينة ، وحين بلغنا منعطف الطريق المحاذي للنهر ، ترجل عن جواده وطلب مني أن أنتظره في تلك البقعة حتى يعود .. ثم سار على قدميه في ذلك المنعطف ، حتى اختفى عن ناظري !

لكن ساعة مرت وهو لم يعـد ، وكان قد بدأ يتصـاعد من النهر ضباب كثيف .. ثم هطل المطر ، وظل يتزايد ويشتد .. فنفد صبري ، ولم أر ما يمنـع من أن أسـير بالجوادين في الاتجـاه الذي انعطف إليه والدي ، فمضيت في الشارع القصير حتى آخره ، ثم وقفت حائراً .. وفيما أنا أستدير راجعاً حانت مني نظرة إلى نافذة مفتوحة في أحد البيوت الخشبية القائمة قبالتي ، فرأيت أبي متكئاً على حافة النافذة وظهره إلى الطريق ، يتحدث إلى امرأة في ثوب

قاتم جالسة داخل الغرفة ، تكاد تحجبها عن الأنظار ستارة بيضاء . ولم تكن المرأة سوى .. زينايدا !

وكانت المفاجأة أعنف من أن تحتملها أعصابى ، فخطر لى فى البداية أن أعود إدراجى مسرعاً ، خشية أن يستدير أبى فيرانى .. لكن شعوراً غريباً ، أقوى من الفضول ، وأقوى من الغيرة ، بل أقوى من الخوف ، سمر قدمى حيث كنت ! فوجدتنى أرقب ما يجرى وأشحذ أذنى كى أسمع ما يدور بين الحبيبين ، ولكن ، بلا جدوى .. كل ما استطعت استنتاجه من حركاتهما أن والدى كان يصر على شىء ما ، وزينايدا تأبى إجابته إلى طلبه !.. وكان وجهها الجميل حزيناً ، يحمل فى آن واحد سمات الهوى ، والأسى ، واليأس .. ثم رأيت أبى يهز كتفيه ويعدل وضع القبعة على رأسه — الحركة التى كانت عنده علامة نفاد صبره ! — وسمعت من كلامه هذه العبارة المبتورة : « يجب أن تقطعى كل صلة بـ .... » ولم يكد ينهى عبارته حتى فعل ما لم يكن يخطر ببالى أن يفعله : رفع السوط الذى فى يده فجأة وهوى به على ذراع الفتاة العارية حتى مرفقها !.. ولا أدرى كيف استطعت أن أضبط أعصابى فلم تصدر منى صيحة انزعاج مفاجئة !.. أما الفتاة فقد ارتجفت رجفة شديدة ورمقت أبى بنظرة صامتة ثم رفعت ذراعها ببطء إلى شفتيها فقبلت البقعة الحمراء التى خلفها السوط على جلدها !.. بينما كان أبى يلقى بالسوط بعيداً فى انفعال ويندفع خارجاً لا يلوى على شىء ، والفتاة تتبعه إلى الباب !

سقط قلبى رعباً وهلعاً ، وتدبرت موقفى على عجل فرأيت أن أعود مسرعاً إلى حيث تركنى أبى . وهكذا أطلقت للجوادين ولنفسى العنان فعدونا بأقصى سرعة حتى بلغت مكانى الأول وأنا ألهث ، قبل أن يخرج أبى إلى الطريق .. وهناك وقفت أنتظره كالذاهل . كنت أعلم أن اتزانه وبرود أعصابه يخذلانه أحياناً ويسلمانه للغضب والتهور ، لكنى عجزت عن إقناع نفسى بأن ما رأيته قد وقع فعلا .. بل شعرت أننى ، مهما طالت حياتى ، لن أنسى يوماً هيئة الفتاة ونظرتها وابتسامتها ، وهى تتلقى جلدة السوط .. فقد حفرت صورتها تلك فى ذاكرتى إلى الأبد !.. فجعلت أحدق فى مياه النهر بنظر زائغ من غير أن أتنبه إلى أن دموعى أخذت تسيل من عينى .. فإن إدراكى كله كان قد تركز فى فكرة واحدة : « أن زينايدا قد جلدت بالسوط أمام عينى ! » .

وأفقت من شرودى أخيراً على صوت أبى يخاطبنى : « هل ضايقك الانتظار ؟ » .. فأجبته وأنا أقمع انفعالى : « قليلا .. ولكن أين أضعت سوطك » .. فرمقنى بنظرة خاطفة وقال : « لم أضعه ، بل رميته عامداً ! » ثم استغرق فى التفكير ، ونكس رأسه .. وعندئذ ، وللمرة الأولى والأخيرة على ما أذكر ، رأيت مدى الرقة والشفقة اللتين تستطيع قسمات وجهه الجامدة أن تعبر عنهما !.. وفجأة ركل جواده بمهمازيه وانطلق به يسابق الريح فى اتجاه بيتنا ، فبلغه قبلى بنحو ربع ساعة .

وفى المساء ، حين جلست إلى منضدة كتبى ، جعلت أهمس لنفسى كالذاهل : « هذا هو الحب .. هذه هى العاطفة الحقة ، وإلا فكيف يستطيع المرء أن يتحمل ضربة سوط من يد كائن من كان ، بل من يد أعز إنسان ، إن لم يكن .. يحبه ؟ ! » وللفور بدا لى غرامى بالفتاة كشىء صبيانى تافه يدعو إلى الرثاء ، إلى جانب هذه العاطفة الأخرى .. العنيفة .. العارمة !

— ١٩ —

● وبعد شهرين التحقت بالجامعة .. ولم تكد تنقضى ستة أشهر حتى مات أبى بالسكتة القلبية فى « بطرسبرج » — حيث كنا قد انتقلنا منذ أسابيع — وكان قد استلم قبيل وفاته بأيام خطاباً من موسكو أثار غضبه وانفعاله . وعلى أثر ذلك رأيته يتوجه إلى غرفة أمى فيطلب منها طلباً لم أقف على تفصيله .. وسمعت أنه ذرف أمامها دمعاً غزيراً ، برغم أنه كان بالدمع ضنيناً !.. وفى صبيحة يوم وفاته الفجائية بدأ يكتب خطاباً لى بالفرنسية جاء فيه : « يا بنى احذر حب المرأة ، احذر ذلك السم فى الدسم ! » .. وبعد موته بأيام أرسلت أمى مبلغاً كبيراً من المال إلى موسكو !

— ٢٠ —

● وانقضت أربعة أعوام ، وتخرجت فى الجامعة .. فقضيت زمناً حائراً لا أدرى أية وجهة فى الحياة أتخذ ، وأى باب أطرق .. وذات مساء قابلت الشاعر « ميدانوف » مصادفة فى أحد المسارح ،

فعلمت منه أنه قد تزوج . لكنى لم ألحظ عليه تغيراً يذكر !.. وفيما نحن نتحدث قال لى ضمن ما قال : « أتعلم أن (مدام دولسكى) هنا الآن ؟ » .

فقلت متسائلا : « ومن تكون مدام دولسكى ؟ » .

— أو يمكن أن تكون قد نسيتها ؟.. تلك الأميرة الشابة التى وقعنا جميعاً فى حبها ، بما فينا أنت ، يوم كانت تقيم فى المنزل الصغير المجاور لحدائق « نسكتشنى » ؟

— وهل تزوجت شخصاً يدعى دولسكى ؟

— نعم ..

— وهل هى هنا فى المسرح ؟

— كلا ، بل أقصد أنها فى بطرسبرج . لقد قدمت منذ أيام وهى توشك أن تسافر فى رحلة طويلة ..

— ومن يكون زوجها ؟

— إنه شاب رائع ، ثرى . كان زميلا لى فى موسكو .. أفليس غريباً أن تفوز به بعد فضيحتها الكبرى .. التى تذكرها جيداً ولا شك ؟.. لكن براعتها وذكاءها يكتسحان جميع العقبات !.. وبهذه المناسبة ، لم لا تذهب لتزورها ؟ إنها سوف تسر كثيراً برؤيتك ..

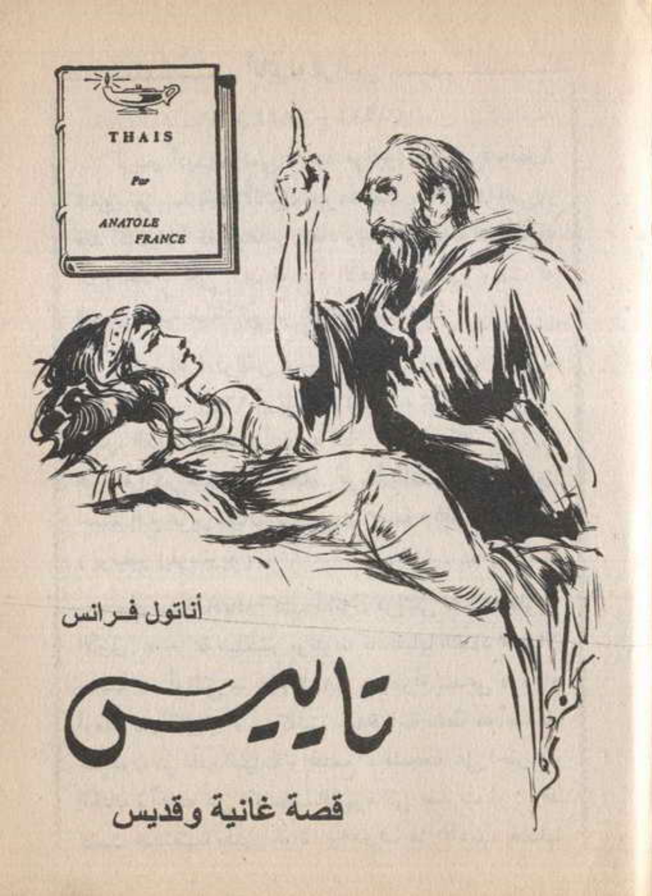
وأعطانى ميدانوف عنوان زينايدا ، وكانت تقيم فى فندق « ديمو » ، فثارت ذكرياتى القديمة فى أعماق ، واعتزمت زيارتها فى اليوم التالى .. لكن عملا طارئاً شغلنى . وهكذا انقضى أسبوع ، ثم آخر ، وحين توجهت أخيراً إلى فندق « ديمو » أسأل عن مدام دولسكى ، علمت – ويا للصدمة التى أصابتنى ! – إنها قد ماتت فجأة منذ أربعة أيام وهى تضع مولودها الأول !

وشعرت بخنجر يطعن قلبى .. وتولانى ندم فظيع وأنا أفكر فى أننى كنت أستطيع أن أراها ، لولا تقصيرى ، وأننى لن أراها قط بعد ذلك ! .. فجعلت أكرر لنفسى وأنا أحدق فى حارس الفندق بغباء : « لقد ماتت ! .. ماتت .. » .. ثم تنبهت لنفسى فقفلت راجعاً إلى الطريق ، ومضيت ذاهلا لا أعلم إلى أين أنا ذاهب .. كان ماضى كله قد استيقظ فجأة وطفا سابحاً أمام عينى .. إذن فهذه هى النهاية ؟ نهاية تلك الحياة الغضة اللامعة الفوارة بالحرارة والحيوية ؟.. وتراءت لى قسمات وجهها الحبيب ، وعيناها الساحرتان ، وخصلات الشعر ، والوجنتان .. راقدة فى ذلك الصندوق الضيق ، فى قلب الأرض الرطبة المظلمة .. غير بعيد منى ، وربما على بعد أمتار من أبى .. بينما أنا لا أزال حياً ، أنا وحدى ! .. أواه ، ماذا بقى لى ، ما أملى فى الغد ، أى مستقبل يتراءى فى خيالى ، بعد أن غاض شبح حبى الأول ، كزفرة

حارة تضيع فى الهواء .. ذاب كما يذوب الشمع فى الشمس .. كما يذوب الجليد !

والآن ، وظلال الليل تزحف على خريف حياتى ، أى شىء أعز على خيالى ، وأغلى ، من ذكريات ذلك الإعصار الجامح الذى عصف بقلبى فى فجر شبابى ؟!

[تمت القصة]


THAIS
Par
ANATOLE FRANCE
أناتول فرانس
تاييس
قصة غانية وقديس

أناتول فرانس

(١٨٤٤ – ١٩٢٤)

لم ينعم أديب فرنسى ، منذ فولتير ، بالشهرة والمجد اللذين نعم بهما «جاك أناتول تيبو» الملقب بأناتول فرانس.. فقد كان فناناً ظفر بتقدير النقاد وإعجاب عامة الشعب فى آن واحد ، حتى دان له قياد الأدب الفرنسى وتمت له السيطرة عليه طيلة أكثر من ثلاثين عاماً كاملة !

وقد ولد « فرانس » – لأب كان صاحب حانوت لبيع الكتب – فى ١٦ أبريل سنة ١٨٤٤ ، بمدينة باريس .. وشب الفتى مجداً مثابراً ، وذكياً .. ولكنه كان يميل إلى القراءة أكثر منه إلى الكتابة . ثم بدأ يألف الكتابة حين أسند إليه تحرير مقال أسبوعى فى صحيفة « العالم المصور » (يونيفير إيلوستريه) .

وفى سنة ١٨٨١ كتب أناتول فرانس قصته الطويلة الأولى : « جريمة سيلفستر بونار » ، فاستقبلها النقاد استقبالا حسناً .. ثم التقى – عام ١٨٨٣ – بامرأة تدعى « مدام أرمان دى كايافيه » ، وكانت سيدة نابهة نشطة لها أصدقاء عديدون من قادة السياسة والمجتمع ، فشجعته على احتراف الكتابة وأعانته على اكتساب الشهرة التى صارت له . وقد دامت صداقتهما مدى الحياة ، واعترف لها الأديب بفضلها

عليه فكتب فى مقدمة أحد مؤلفاته عبارة الإهداء التالية : « إلى مدام كايافيه أهدى هذا الكتاب الذى ما كنت لأكتبه بغير مساعدتها .. وبغير مساعدتها لم أكن لأؤلف أى كتاب على الإطلاق ! » .

وتابع أناتول فرانس نشاطه فى الإنتاج الأدبى بعد ذلك التاريخ أربعين عاماً كاملة ، نشر خلالها نحو خمسين كتاباً عدا قصائده الشعرية الباكرة . ومن أهم مؤلفاته قصص : تاييس ، الزنبقة الحمراء ، جزيرة « بنجوين » ، ثورة الملائكة ، بيير الصغير .. ثم قصة حياة جان دارك .. وفى سنة ١٨٩٥ عين ضابطاً فى فرقة الشرف (الجيون دونور) . وفى العام التالى انتخب عضواً فى الأكاديمية الفرنسيه .. فدخل فى عداد الخالدين !

تاييس !

غانية الإسكندرية القديمة ، منذ عشرة قرون أو تزيد ..

المرأة التي كانت قبلاتها « أحر من الجمر وأعذب من الشهد ! » .. والتي تساقط عند قدميها يستجدى حبها ورضاها أعظم حكام المدينة وحكمائها ، فمنحتهم حبها قطرة قطرة ، وواحداً واحداً ، ثم سخرت منهم ونبذتهم ، واحداً بعد واحد !.. فلما جاءها (بافنوس) رجل الدين يسعى إليها من قلب صومعته فى الصحراء كى يهديها إلى الصراط المستقيم ، ويربح للدين أجمل رعايا (فينوس) ، سخرت منه فى البداية .. ثم ارتمت عند قدميه فى النهاية تطلب حمايتها من ألد أعداء المرأة : الشيخوخة والموت !

تاييس !

.. القصة القديمة الجديدة ، التي لن تبلى جدتها مع مضى العصور .. والتي طالما نازعتنى نفسى إلى تقديمها لك ، وإشراكك معى فى هذه اللذة الذهنية الرائعة التي تنبعث من خلال سطورها ..

هى قصة الجسد والشيطان .. قصة الصراع الرهيب بين الخير والشر ، بين الفضيلة والرذيلة ، بين التبتل والغواية ..

قصة العراك الدائم بين الهدى والضلال .. بين حب الإنسان لربه ، وحبه لنفسه ممثلا فى حبه للجنس الآخر .. إلى حد الاحتراق !

قصة الضعف الإنساني فى أبشع صوره وأقوى مظاهره :

حين ينشب أظافره فى قلب رجل الدين فينتزع منه روحه ويلقى بها فى أحضان إبليس !

قصة امرأة أحبت واستمتعت وتبذلت ، ثم زهدت !..
ورجل حرم نفسه من متع الدنيا الفانية دهراً ، ثم اشتهى كفراً !

قصة راهب وغانية .. تقابلا ، فتصارعا ، وتأرجحت نفساهما بين الغواية والهدى .. حتى انتصر هو ، فهداها .. ثم غوى ..!.. فوهبت هى نفسها لله ، وباع هو روحه للشيطان !

تاييس !

أما تاييس المرأة ، والبطلة ، فقد ماتت — فى خيال مؤلفها وخالقها — منذ أجيال ..

وأما تاييس القصة ، فخالدة لن تموت !

- ١ -

● نحن فى صحراء مصر منذ ألف ونيف من السنين ، حيث يعيش الراهب الشاب (بافنوس) رئيساً لجماعة من الرهبان اتخذوا من الصحراء منفى اختيارياً يقيهم إغراء الجسد والشيطان ، ويضرب بينهم وبين مغانى الحضر وملاهى المدن المصرية أميالا سحيقة من الرمال ..

لكن الشيطان لا يلقى سلاحه بسهولة ، بل ينفس على الراهب المتعبد حبه لله ، وتعلقه بربه ، وإيمانه بالنعيم الموعود .. دون

الموجود !.. ومن ثم يحيك الشباك لإيقاعه فى حبائله ، والتربع فوق عرش قلبه وروحه ، مكان الله !!

• • •

وإذا برؤيا تتراءى لبافنوس فتقض مضجعه ، وتتركه مبلبل الفكر ، ينصت لهمسات الشيطان ، ويقنع نفسه بأن ذاك لم يكن سوى نداء من السماء عليه أن يلبيه ، لكى ينال رضاء ربه !

لقد رأى التعس خيال أشهر غانيات الإسكندرية ، « تاييس » الفاتنة ، التى كان قد لمحها يوماً وهو ما يزال صبياً ، فأحبها وعبدها بقلب الصبى .. من بعيد !

أما الآن فهو يتأملها فى رؤياه بعين الراهب المتعبد ، أو هكذا يزعم لنفسه — أو تزعم نفسه له — أو يزعم لكليهما الشيطان ، هامساً فى أذنيه ليل نهار ، همساته المعسولة : « بافنوس .. بافنوس .. إنها رؤيا من الله .. إن ربك يناديك كى تسعى وراء تاييس ، باحثاً عنها أينما وجدت ، حتى تلقاها فتلقى فى وعيها ، وتصب فى أذنيها .. وفى نفسها وروحها .. رسالتك التى حملتك إياها السماء .. رسالة الهدى والرشاد .. فهيا قم وانفض عنك رداء الخمول وارتد مسوح الكهان ، ثم امض فى سبيلك تكلأك رعاية الله ! » .

• • •

• ويشد الراهب رحاله ، ضارباً فى الصحارى والوهاد ، ووجهته المدينة العظيمة — الإسكندرية — حتى يبلغ بيت صديقه وزميله القديم الفيلسوف (نيسياس) فيفضى إليه بمقصده .. لكن هذا يحذره قائلا : « إن فينوس إلهة الحب ستغضب أشد الغضب إذا انتزعت منها أنضر زهراتها ! » .. لكنه يقبل أخيراً — بحكم صداقتهما القديمة ، وبدافع من الفضول — أن يقود الراهب إلى الملعب الذى تؤدى فيه تاييس دور الممثلة الأولى .. ثم إلى حفل كانت تاييس تسامر فيه جماعة من الفلاسفة .. وأخيراً إلى بيتها !

— ٢ —

كانت تاييس مضطجعة فى استرخاء فوق مقعد طويل تنصت لخرير المياه المتساقطة من النافورة وتتنسم شذى الزهر وعطر الورود ..

.. وأمسكت بالمرآة تتأمل فيها وجهها وتطالع فيه أول نذر الغروب — غروب جمالها الآسر وشبابها الناضر ! — فتمثل لها اليوم الذى سيبيض فيه شعرها وتشوه التجاعيد وجهها .. وعبثاً حاولت أن تسترد سكينة نفسها وطمأنينتها ، فقد مضى صوت صارم يصيح فى أذنيها :

— « إنك ستهرمين يا تاييس . ستهرمين ! » .

فتصبب العرق البارد على جبينها وعادت تحدق فى المرآة فى انزعاج .. لكن المرآة طالعتها فى هذه المرة بوجه ما يزال جميلا ، جديراً بأن يحب . فابتسمت لصورتها وغمغمت : « ليس فى

الإسكندرية من تدانيني فى جمالى ، ومرونة قوامى ، وفتنة ذراعى الفاخرتين . وما أدراك يا مرآتى ما الذراعين ؟ إنهما أغلال الحب ! »

وفيما هى تدير فى رأسها هذه الخواطر ، رأت مجهولا منتصباً أمامها .. نحيلا ، ذا عينين ناريتين ولحية كثة وعباءة مطرزة ! .. فأسقط الذعر مرآتها من يدها وأفلتت منها صيحة انزعاج ..

أما بافنوس فوقف بلاحراك ، وقد أذهله جمال الغانية ، حتى لم يملك أن همس فى سره بهذه الصلاة : « فلتبارك يارب عبدك ولتدرأ عنه إغراء هذه المرأة ! »

ثم انتزع من غمرة البلبلة التى هزت أعصابه ، القوة على أن يقول مخاطباً تاييس : « تاييس ، إنى أقطن صومعة بعيدة عن هنا ، لكن صيت جمالك الذائع قادنى رغم بعد الشقة إليك . يقولون إنك أفتن النساء وأفتك الغانيات ، وها أنذا أرى الواقع يفوق كل ما رووا ، فإنك أحكم وأجمل ألف مرة مما يشيعون ! والآن ، وأنا أراك أمامى وجهاً لوجه ، أكاد أقول لنفسى : « إنه لمن المستحيل أن يقترب الإنسان منك دون أن يترنح كالثمل ! » .

وكانت تاييس تنصت له وهى تتأمل هذا المخلوق الغريب الذى أخافها وبعث رعدة غامضة فى أوصالها ، بهيئته الخشنة ، والنار القائمة التى تشع من نظراته ! .. لكنها لم تلبث أن أحست فضولا قوياً إلى معرفة ذلك الرجل الذى يختلف مظهره ، ولابد أن يختلف باطنه ، عن سائر الذين عرفتهم .. فأجابته فى سخرية ناعمة :

« إنك تبدو جديراً بالإعجاب أيها الغريب ! .. فخذ حذرك لئلا تخترق نظراتى جسدك وتحرق عظامك .. احذر من أن تحبنى ! »

لكنه أجابها فى لهجة الواثق : « بل إنى أحبك يا تاييس ! أحبك أكثر من حياتى ومن نفسى . ومن أجلك تركت صحرائى الآمنة .. ومن أجلك لفظت شفتاى — اللتان نذرتا للصمت — أقوالا دنيوية دنسة ! من أجلك رأيت مالم يكن ينبغى أن أرى ، وسمعت ما كان محرماً على أن أسمع .. من أجلك اضطربت نفسى وتفتح قلبى ، فانبثقت منه الأفكار كما تنبثق ينابيع المياه فتروى منها الحمائم ! من أجلك مشيت الليل والنهار عبر رمال تملؤها الزواحف وتسكنها الأشباح .. من أجلك خضت بقدمى العارية وسط الحيات والعقارب ..

« نعم ، إنى أحبك ، أحبك ولكن لا على غرار أولئك الذين يسعون إليك كالذئاب الضارية والثيران الهائجة وهم يتلظون بنار الرغبة والجسد . إن غرامهم الوحشى يفتك بك حتى قرارة روحك .. أما أنا فأحبك أيتها المرأة بالروح والحق ، أحبك فى الرب لأجيال الأجيال ! .. إن ما أكنه لك فى صدرى هو الحرقة الحقة والبر الإلهى . وما أعدك به يفوق النشوة التى فى عمر الزهر وحلم الليل القصير . أعدك بعرس دائم فى السماء . إن السعادة التى آتيك بها لن تنتهى أبداً .. إنها لشىء لم يسمع أو ينطق به ، لو لمح سعداء هذا العالم ظله فقط لصعقوا من فورهم عجباً ودهشة ! »

فضحكت تاييس ضحكة لها رنين التحدى ، ثم قالت :

« إذن فهيا أيها الصديق وأرنى حبك الرائع هذا وأسرع ، فإن « المحاضرات » الطويلة فيها امتهان لجمالى .. هيا ولا تضيع وقتاً ، فلكم أنا مشوقة إلى تذوق هذه السعادة التى تتحدث عنها ، إنك لتتحدث عن حب مجهول ، ولكنى ذقت من القبلات ما يجعلنى أستبعد أن تكون للحب أسرار أخرى أجهلها .. والعشاق مرجع فى الهوى أكثر من الكهان ! » .

– تاييس ، لا تسخرى . إنى أحمل إليك ذلك الحب الأعظم .

– ولكنك جئت متأخراً أيها الصديق ، فإنى أعرف كل ألوان الهوى !

– إن الحب الذى آتيك به يعد بالمجد ، فى حين أن الهوى الذى تعرفين ينضح بالعار !

.. ونظرت إليه تاييس نظرة قاتمة ، وارتسمت على جبهتها الصغيرة غضون :

– إنك تغالى فى الجرأة ، أيها الغريب ، وتهين مضيفتك .. فتأملنى ملياً وقل إذا كنت أبدو كمخلوقة يجللها العار ؟ كلا ! ليس فى حياتى أى عار .. إنى أبذر الترف أينما حللت ، وهذا سر شهرتى فى الدنيا بأسرها . إن لى نفوذاً يفوق نفوذ سادة الأرض ، فلقد خرّوا كلهم سجداً عند قدمى !.. انظر إلى ، تأمل قدمى الصغيرتين : إن ألوف الرجال يبذلون دمهم ثمناً لحظوة بلذة تقبيلهما !. إنى أخلق بين الرجال بغضاً وعداء وبأساً وجرائم تملأ

الأرض .. أفلست مجنوناً إذ تحدثنى عن العار ، بينما الدنيا تحيطنى بهالة من المجد ؟

– إن ما يبدو مجداً فى أعين الرجال ، هو فحش فى نظر الله ، فأين من يلهمنى كلاماً كاللهب يذيبك كالشمعة أمام أنفاسى ؟! وأين من يهب أصابعى القدرة على أن تصوغك وفق رغبتى ؟ أيا أعز نفس على ، من لى بقوة الإيحاء كى أجعل الروح التى تملؤنى تخلقك خلقاً جديداً ، وتطبعك بجمال علوى حتى تصيحين وأنت تبكين من الفرح : « اليوم فقط ولدت ! » .. ومن لى بمن يفجر من قلبى ينبوعاً نقياً تغتسلين فيه من خطاياك ، وتستردين طهارتك الأولى ؟

ولم تجب تاييس ، فقد تناهبتها الخواطر ، وراحت تهمس لنفسها : « هذا الرجل يتكلم عن حياة أبدية ، وكأنه يقرأ من لوح مسطور .. فما من شك فى أنه ساحر ، وأن عنده تمائم تقى من الشيخوخة والموت ! »

وعند هذه الفكرة اعتزمت أن تسلم نفسها له ، وتطيعه طاعة عمياء .. فابتعدت بضع خطوات واستلقت على حافة الفراش وجذبت رداءها فوق صدرها فى حركة إغراء ، ثم ظلت بلا حراك ، صامتة ، مخفوضة الأجفان .. تنتظر ! وكانت أهدابها الطويلة تلقى ظلالا ناعمة على خديها ، وساقاها العاريتان تتأرجحان فى رخاوة ، كطفلة جلست على شاطىء نهر تفكر ..

لكن بافنوس طفق يتأملها دون أن يتحرك ! وإن كانت قدماه المرتجفتان قد عجزتا عن حمله ، والكلام الذى كان فى ذهنه قد جف فى حلقه .. وثار فى رأسه إعصار مخيف !.. وفجأة سقطت على عينيه سحابة كثيفة أخفت عنهما صورة المرأة التى أمامه .. وبمجهود عنيف استعاد رباطة جاشه ، وتساند على نفسه كى يقول ، فى صرامة تليق براهب الصحراء : « أتحسبين أن استسلامك لى يخفى على عين الله ؟ » .

فنكست رأسها ثم قالت : « الله ؟.. أولم يخلقنا الله هكذا ؟ إذن فلماذا يغضب حين يرانا نعيش وفق الطبيعة التى جعلها فينا ؟ إن كثيراً من النواهى التى ينسبها البعض إلى الله لم تصدر عنه ، أو أسيء تفسيرها .. فأنت مثلا ، هل تستطيع أن تزعم أنك مطلع على أفكاره ، أو تعرف نواياه ؟ .. ومن أنت حتى تخاطبنى باسمه ؟ »

وعند هذا عاود الراهب كبرياؤه ، واعتداده بنفسه ، فقال فى لهجة الحزم : « أنا بافنوس كاهن (أنتينوى) ، أقف أمامك أيتها المرأة ، كما لو كنت أقف أمام ضريح ميت ، لأصيح فيك : « تاييس ، انهضى ! »

وهزتها الكلمات ، فشحب وجهها وتهدل شعرها .. وبيديها المضمومتين فى ضراعة ، تهاوت عند قدميه تبكى وجسدها ينتفض : « لا تؤلمنى .. لماذا جئت ؟ ماذا تريد منى ؟ لا تسيء إلى ! أنا أعلم أن رهبان الصحراء يكرهون النساء اللواتى خلقن مثلى للغواية .

ولكم يخيفنى أن يتلفنى بغضك لى . فاذهب .. لم أعد أشك فى قوتك وقدرتك ، ولكن فلتعلم يا بافنوس إنى لا أستحق بغضاً أو احتقاراً . إن الطبيعة هى التى صاغتنى على هذا المنوال ، خلقتنى لإغراء الرجال !

« .. وأنت ، ألم تقل منذ لحظات أنك تحبنى ؟.. أضرع إليك أن لا تنطق بكلمات سحرية تتلف جمالى أو تحيلنى عموداً من الملح . لا تخفنى ، لا تجعلنى أموت .. فلكم أرهب الموت ! » .

فأشار لها كى تنهض وهو يقول متلطفاً : « اطمئنى يا طفلتى ، ولا تراعى ، فلن أكن لك بغضاً أو احتقاراً .. ولست بلا خطيئة حتى أرميك بحجر .. إنه ليس الغضب بل الشفقة التى ساقتنى إليك .. ولئن كنت ترهبين الموت فاهجرى حياة الخطيئة والدنس ، تعيشين إلى الأبد !.. ولئن أردت الحياة فتعالى جددى شبابك فى ينابيع العزلة المباركة .. » .

– وهل صحيح أنى أولد فى السماء من جديد بجسمى هذا ، وجمالى كما هو ؟

– تاييس ، إنى آتيك بالحياة الأبدية ، فصدقينى !

– بودى لو أصدقك ، فإنى أعترف لك بأننى لم أجد السعادة فى هذا العالم ! إن سلطانى ومجدى يفوقان أمجاد الملكات ، ومع ذلك فإن حياتى حافلة بالمرارة والأحزان . والحق أنى تعبت من هذه الحياة ، وصرت أحسد اللواتى يحسدننى .. أحسد بائعة الحلوى

العجوز التى تبيع بضاعتها عند أبواب المدينة ! وليخيل إلى أحياناً أن الفقراء وحدهم هم الطيبون السعداء المباركون . وأن فى الحياة البسيطة المتواضعة لذة وعـذوبة كبرى .. لقد حركت بأقوالك أمواج نفسى ، وجعلت ما كان كامناً فى أعماق يطفو على السطح .. !

وفيما كانت تتكلم كان يغمر وجه الراهب فرح طاغ ، فلما انتهت تقدم منها صائحاً : « يا ذات الحكمة الإلهية . الآن عرفت سر القوة التى كانت تدفعنى نحوك ، والتى جعلتك عزيزة جميلة فى نظرى . فتعالى يا أختاه وتقبلى من أخيك قبلة السلام ! »

ورطب الراهب بشفتيه جبين الغانية . أما هى فبكت بدموع غزيرة .. دموع التوبة !

° ° °

● وعلى دهش من الراهب بافنوس قبلت تاييس بمحض رغبتها أن تتبعه إلى حيث يقودها ، وأن تحرق وفقاً لرغبتـه كل مالها وكنوزها ، حتى صورة (كيوبيد) الرائعة التى كانت تحرص عليها أشد الحرص ، لجمالها الفنى !

ويقود بافنوس تاييس التائبة إلى دير للراهبات ، حيث يعهد بها إلى رئيسته (ألبينا) .. ثم يعود هو إلى صومعته فى الصحراء ..

لـكنه قد فقـد راحة البـال ، وسكينة النفس .. فإن تاييس لا تكف عن أن تتراءى له فى رؤاه وأحلامه .. وتستل النعاس من

أجفانه .. وتوقظ فى حسه ونفسه أطماعاً وأخيلة تنخر فى كيانه، كالسوس !

ويحاول المسكين أن يلتمس من ذلك مهرباً بالصعود إلى قمة معبد متهدم مهجور ، ودفن همه فى التعبد الصارم لله ، وسط جماعة من النساك الزاهدين ..

لكن بهرج الدنيا وأهواء الحياة لا تفتأ تسعى إلى قلبه سعيها الحثيث ، وتراوده عن زهده وتقواه ، وتنتزع منه الإيمان ، حجراً بعد حجر ، حتى تقوض دعائمه !

وهكذا .. وتحت تأثير ملازمـة خيـال تاييس له فى يقظتـه وأحلامه ، وإلحاح رؤاها عليه .. أسلم بافنوس أخيراً قياده لهواه ، ومضى إلى قديس عجوز يدعى (سانت أنطونى) يبثه همه وبلواه !

لكن الأقدار هيأت له الخـاتمة ودفعته إليها دفعاً على لسان منجم من الراجمين بالغيب ساق له النبأ المفجع الذى كان خليقاً أن يذرو مع الريح بقايا الرماد الذى ستر غرائزه ، ويوقظ فى حنايا ضلوعه رغبة عاتية معربدة مجنونة ..

.. فإن المنجم يزعم ويؤكد أن « تاييس على وشك أن تموت ! »

– ٣ –

● صعق النبأ بافنوس ، فلم ير أو يسمع مزيداً . كانت الكلمات التى ملأت أذنيـه واضحة تقـول : « إن تاييس على وشك أن تموت ! » .. فأى معنى جديد ورهيب ينطوى تحت هذه الكلمات :

تاييس على وشك أن تموت !.. إذن فأى فائدة تبقى للشمس ، والأزهار ، ومجارى المياه وكل الخليقة ؟.. وما جدوى الدنيا بأسرها ؟

وفجأة هب واقفاً ، وصوت يهيب به : « اذهب لتراها .. يجب أن تراها مرة أخرى ! » .. فبدأ يعدو .. لم يدر إلى أين ، لكن غريزته كانت تقوده بيقين تام ، فيمم وجهه شطر النيل .. وكانت مجموعة من القوارب تغطى صفحة النهر ، فهبط إلى واحد منها يتولاه بعض النوبيين .. وحين استقر داخله رفع بصره نحو الأفق البعيد ، وصاح مخاطباً نفسه فى حزن وغيظ : « يا لى من أحمق .. كيف لم أنل تاييس حين كان فى الوقت متسع !؟.. وكيف بلغت بى الحماقة أن أصدق أن فى الدنيا شيئاً سواها جديراً بتكريس نفسى من أجله !.. لقد كنت مجنوناً إذ فكرت فى الآخرة وفى الحياة الثانية ، كأنما ذلك كله يساوى شيئاً بعد رؤية تاييس !.. كيف لم أدرك أن السعادة الأبدية فى قبلة واحدة من هذه المرأة ، وأن الحياة بدونها لا معنى لها وليست سوى كابوس ثقيل ؟ما كان أغبانى إذ رأيتها ومع ذلك طمعت فى أشياء أخرى ، فى عالم آخر !.. وما كان أشد جبنى إذ رأيتها وخشيت عقاباً أو طمعت فى ثواب !.. وهل من شىء يساوى جزءاً مما كانت تستطيع أن تهبنى إياه ؟ أيها المخبول الأحمق ، الذى بحث عن

السعادة الخالدة فى غير شفتى تاييس ! أى يد ختمت على بصرك وحجبت الحقيقة عن عينيك ؟

« لقد كان فى إمكانك أن تشترى لحظة من حبها ولو حلت عليك اللعنة إلى الأبد ، لكنك لم تفعل ! بل لقد فتحت لك ذراعيها ، المصوغتين من اللحم وشذى الأزهار ، ومع ذلك لم تدفن نفسك فى أحضان صدرها العارى .. إطاعة منك لصوت ضمير دفعته الغيرة وحدها كى يحذرك منها !.. والآن ماذا يجدى الندم ، والأسف ، واليأس ، بعد أن أضعت فرصة الهناء الطاغى الذى كان فى متناول يدك ، والذى كنت خليقاً أن تحسه حين تحمل معك إلى جهنم ذكرى متعة لا تنسى !.. يا إلهى ، إحرق لحمى وهشم عظامى وجفف الدم فى عروقى ، ولكن .. لا تسلبنى الذكريات التى ستعطرنى وتنعشنى على مر الأجيال !.. تاييس على وشك أن تموت ؟.. رباه ، إنها لن تكون من نصيبى أبداً ، أبداً ، أبداً ! » .

وفيما كان القارب يمرق به منساقاً مع التيار الجارف ظل الراهب أياماً يهمس لنفسه فى حشرجة مروعة وحسرة من نار : « أبداً ، أبداً ، أبداً ! » .. وحين تجسمت فى ذهنه فكرة أنها قد وهبت نفسها لغيره وأراقت على الدنيا موجات حبها ، وأنه لم يرطب شفتيه منها .. هب واقفاً والشرر يتطاير من عينيه ، وصرخ من أعماق نفسه الحزينة ، ثم أنشب أظافره فى صدره

وراح يمزق جلده ويعض ذراعيه وينتحب !.. ثم انتابه حنين طاغ ورغبة جارفة فى أن يلقى بنفسه بين أحضان رفيق شبابه « نيسياس » ويناشده : « نيسياس ، إنى أحبك كما أحببتها أنت . فحدثنى عنها .. أعد على سمعى كل ما قالته لك .. » .. وفجأة عادت تطرق قلبه بقوة هذه الكلمات : « تاييس على وشك أن تموت ! » .

.. أيا ضوء النهار ، ويا ظلال الليل الفضية .. أيتها النجوم ، والسماوات ، والأشجار ذات الهامات المتمايلة .. ويا وحوش البرية ، وحيوانات الأدغال ، وقلوب الرجال ، ألا تفهمين : « إن تاييس على وشك أن تموت ! » .. ويا أيها النور والنسيم والعبير ، اختف كلك من الوجود !.. وأنت يا جميع الأشياء والأفكار ، امحى من الأرض .. فإن تاييس على وشك أن تموت ، لقد كانت جمال الكون ، والآن صار ذلك كله مجرد حلم .. فإن تاييس توشك أن تموت !.. فكيف لا أموت بموتها ؟ .. ولكن ما أغبانى إذ أظن أننى أستطيع أن أتذوق الموت ، أنا الذى لم أعرف الحياة !

• • •

● وعند الفجر استقبلت الراهبة (ألبينا) بافنوس على عتبة الدير :

« مرحباً بك فى دار السلام أيها الأب المبارك ، فإنك ولاشك قد جئت لتبارك القديسة التى أهديتنا إياها . إن تاييس تدنو من

نهايتها السعيدة بعد أن أتمت رسالتها .. وسأذكر لك فى اختصار مسلكها فى الفترة التى أقامتها بيننا : -

« بعد رحيلك مباشرة أرسلت لها فى الكوخ الذى أغلقته عليها قبل ذهابك ، قيثارة كتلك التى تعزف عليها عادة فى الولائم مثيلاتها من الغانيات . وقد فعلت ذلك عامدة كى لا تفقد صوابها من الوحدة والوحشة الجديدة عليها ، ولكى أتيح لها فرصة تظهر فيها لله بعض مواهبها التى طالما أظهرتها أمام أعين الرجال ! وقد صدق حدسى ، فقد صارت تاييس تعزف على القيثارة كل يوم بعض الأناشيد الدينية ، وفتن صوت القيثارة بقية الراهبات فازددن حمية فى أداء واجباتهن الروحية . وهكذا كانت تاييس تؤدى رسالة التكفير يوماً بعد يوم .. حتى فوجئنا بعد ستين يوماً بالباب الذى أحكمت إغلاقه بنفسك ينفتح من تلقاء نفسه ، وبالختم الذى وضعته عليه ينكسر دون أن تمسه يد بشر !.. وأمام هذه العلامة أدركت أن العقوبة التى فرضتها أنت عليها يجب أن توقف ، وأن الله قد غفر خطايا عازفة القيثار !

« ومنذ ذلك اليوم شاركت تاييس بقية الراهبات حياتهن وتعبدهن ، بل تفوقت عليهن بالتواضع الذى لازم حركاتها وأقوالها .. حتى صارت تبدو بينهن وكأنها تمثال حى للخجل والعار ! وأحياناً كانت تنتابها الكآبة ، لكن هذه النوبات كانت لا تلبث أن تمر . وحين لمست مقدار تعلقها بالله وإيمانها به لم أتردد

فى استغلال فنها وجمالها لنفع زميلاتها ، فدعوتها لتمثل أمامنا أمجد أعمال القديسات والعذارى والنسوة الطاهرات ، فمثلت صوراً من حياة كل من استير ، ودبورة ، وأخت اليعازر ، ومريم العذراء !.. وأنا أعلم أيها الأب المبارك أن هذه الفكرة قد أزعجت وصدمت قداستك ، ولكنك كنت خليقاً أن يغلبك التأثر لو رأيتها فى تلك المشاهد الورعة وهى تسكب الدموع الغزار وتمد ذراعيها كأعواد النخيل نحو السماء .. !

« لقد خبرت طويلا طباع النساء بحكم سيطرتى على الراهبات ، ومن مبادئى التى أطبقها معهن دائماً أن لا أقهر واحدة على عمل يخالف طبيعتها ، فإن كل البذور لا تنتج ذات الثمار .. وكل النفوس لا تتوب بطريقة واحدة .. ثم إننا يجب أن نذكر أن تاييس هجرت العالم ووهبت نفسها لله وهى ما تزال جميلة ، وهذه التضحية وإن لم تكن فريدة فهى ولا شك نادرة جداً !.. وها أنت سترى أن جمالها ، ذلك الثوب الذى خلعته عليها الطبيعة ، لم يخلق أو يبلى برغم الحمى التى تحرق جسدها منذ ثلاثة أشهر وتوشك أن تقضى عليها !.. ولما كانت لم تكف طوال مدة مرضها عن الضراعة وطلب تمكينها من التطلع إلى صفحة السماء ، فقد جعلتها تحمل كل صباح إلى الفناء الخارجى قرب البئر التى تقع تحت شجرة التين العتيقة .. وهناك تستطيع أن تراها الآن أيها الأب المبارك ، فقط عليك أن تسرع لأن الله يدعوها إلى سماواته ..

والليلة سيسدل الغطاء على الوجه الذى خلقه الله للضلال والهدى ! »

• • •

● تبع بافنوس الراهبة (ألبينا) إلى فناء الدير ، الغارق فى ضياء الصباح .. وكانت الحمائم البيضاء فوق الأسقف المصنوعة من الطوب أشبه بعقود من اللؤلؤ !.. وفوق فراش متواضع ، فى ظل شجرة التين ، كانت تاييس مضطجعة يكسوها شحوب الموت ، وقد عقدت ذراعيها فوق صدرها .. وإلى جوارها وقفت الراهبات وعلى وجوههن الأنقبة يرتلن صلاة الاحتضار من مزامير داود : « ارحمنى يا الله حسب رحمتك . حسب كثرة رأفتك أمح معاصى »

وناداها بافنوس : « تاييس ! » .

فرفعت أجفانها فى بطء ، وأدارت نحو مصدر الصوت حدقتيها البيضاوين ، فأشارت (البينا) إلى الراهبات أن يرجعن خطوات إلى الوراء ..

وعاد صوت الراهب يناديها : « تاييس ! » .. فرفعت رأسها قليلا ، وخرجت من شفتيها الشاحبتين غمغمة خائرة : « أهذا أنت يا أبتاه ؟ » .

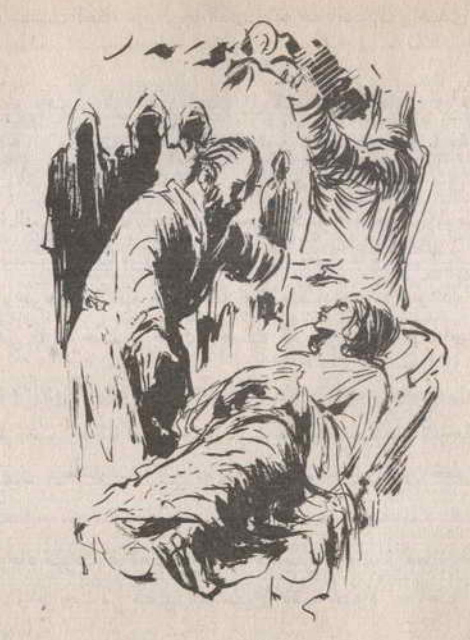
ثم كفت عن الكلام ، وسقط رأسها إلى الوراء . كان الموت يجثم فوقها ، وعرق النزع يكلل هامتها .. وفجأة قطع الصمت المخيف صوت حمامة تصيح متوجعة .. ثم اختلط نشيج الراهب

بترتيل العذارى من جديد : « اغسلنى كثيراً من إثمى ومن خطيئتى طهرنى ، لأنى عارف بمعاصىّ وخطيئتى أمامى دائماً » .

وفجأة نهضت تاييس فى فراشها وانفتحت عيناها ، اللتـان كساهما الشحوب بلون البنفسج ، إلى آخر مداهما . وبنظرات ترنو إلى بعيد، وبذراعين ممدودتين نحو التلال البعيدة ، قالت فى صوت واضح مسموع :

« ها هو الفجر الوردى للصباح الأبدى » .. ثم أشرقت عيناها ولونت وجنتيها حمرة خفيفة ، وبدت أجمل وأعذب مما كانت فى أى يوم من الأيام !.. فجثا بافنوس أمامها واختواها بين ذراعيه السمراوين ، وهو يصيح بصـوت غريب أنكره هو ذاته : « تاييس ، لا تموتى .. إنى أحبك .. لا تموتى ! انصتى يا تاييس ، إنك ملك لى وحدى . لقد خدعتك ، ولكم كنت بائساً أحمق . إن الله والسماوات لا تعنى شيئاً فى نظرى ! لا شىء حقيقى سوى الحياة على الأرض ، وسوى الحب ! إنى أحبك يا تاييس ، فلا تموتى . هذا مستحيل . إنك أثمن من أن يعدو عليك الموت . تعالى ، تعالى معى . سأحملك بعيـداً بين ذراعى . هيا ودعينا نتحـاب . اسمعى يا محبوبتى ، وقولى : « سأعيش .. أريد أن أعيش » .. تاييس ، تاييس ، انهضى ! » .

لكنها لم تسمعه ، فقـد سبحت عيناها فى فضاء اللانهاية .. ثم غمغمت : « ها هى السماء تنفتح .. إنى أرى ملائكة ، وأنبياء ،



فرفعت أجفانها فى بطء ، وأدارت نحو مصدر الصوت حدقتيها البيضاوين ..

وقديسين .. وبينهم (تيودور) القديس النوبى ، إن يديه مليئتان بالأزهار .. إنه يبتسم ويناديني .. وهاهما ملاكان يقبلان نحوى .. إنهما يقتربان .. كم هما جميلان .. ها أنذا أرى الله ! ! » .

وأطلقت آهة فرح .. ثم سقط رأسها على الوسادة بلا حراك . لقد ماتت تاييس !.. وإذا بافنوس يحتضنها فى حركة يأس تفيض بالشهوة والحب والغيظ .. فصاحت به البينا : « اغرب من هنا ، أيها الشرير ! » .. فأجفل بافنوس متراجعاً وهو يرتعد . كانت عيناه تتلظيان بلهب من نار ، وأحس بالأرض تميد تحت قدميه ..

.. بينما استطردت العذارى مرتلات : «مبارك اسمك يا الله» .. وفجأة ماتت الكلمات فى حناجرهن ، فقد رأين وجه الراهب بشعاً مخيفاً ، فانطلقن هاربات وهن يصحن فى فزع : « شـيطان !.. شيطان ! » .

.. لقد انقلبت سحنة بافنوس إلى حد أنه حين مر بيـده على وجهه ، أحس هو نفسه ببشاعة صورته !

[تمت القصـة]



● كنا سبعة – ثلاثة رجال وأربع نساء – فى عربة تسير بنا الهوينا فى الطريق العريض المتعرج ، بمحاذاة الشاطئ ، وقد اتخذ أحدنا مجلسه فى مقدم العربة إلى جوار السائق . وكنا قد برحنا بلدة (اترينا) عند الفجر – لزيارة أطلال (تنكرفيل) – والنعاس ما يزال يتكسر بين أجفاننا ، ونسائم الصباح الباردة تخفق على وجوهنا ، وتتردد فى صدورنا . وكانت النسوة أكثرنا عجزاً عن مقاومة سلطان النوم القاهر ، إذ لم يعتدن أمثال هذه الرحلات المبكرة ، فكانت أجفانهن تنفرج وتنطبق بين دقيقة وأخرى ، ورؤوسهن تعلو ثم تهبط فوق صدورهن مع اهتزازات العربة ، وأفواههن تتثاءب كسلا وخمولا .. وبالاختصار ، كن فى غفلة تامة عن جلال الفجر الساحر !

وكانت الأرض ترتدى حلة الخريف ، وحقول الحنطة تمتد على جانبى الطريق إلى مرمى البصر ، تتوّجها سنابل ذهبية تلمع فى ضوء الشروق كشعيرات نامية فى ذقن رجل .. والبلابل تصدح فى الرياض مرحة جذلانة .. وفى أقصى الأفق السحيق أخذت الشمس تنهض من رقادها محمرة العينين كمخمور أفرط فى السهر .. فيصحو الريف كله معها وهو يبتسم ، ويتمطى ، كعذراء تنفض عنها النعاس وتنضو عنها قميصها الأبيض !

وفجأة ، صاح الكونت « ديتراى » من مكانه بجوار السائق : « انظروا .. انظروا !.. هذا أرنب برى ! » ، وأشار إلى اليسار ،

حيث كان الأرنب الشارد يتابع عدوه بين النباتات التى تكاد تغطيه وتحجبه ، فلا تظهر منه إلا أذنان كبيرتان تمرقان بأقصى سرعة ، متنقلتين من مكان إلى مكان .. ثم توقف بغتة أمام مجرى عميق ، ربما غير اتجاهه ، وتابع سباقه للريح .. إلى أن عاقه عائق آخر ، فتوقف من جديد وراح يتلفت حواليه فى انزعاج وحيرة ، يتلمس طريقاً مأموناً يجنبه مواطن الخطر وسهم الصياد . وفجأة استأنف جريه بخطى واسعة وقفزات سريعة ، حتى اختفى آخر الأمر وسط حقل من حقول البنجر ، وأعيننا تتابع خط سيره بفضول وانتباه !

وإذ ذاك قال أحدنا – ويدعى « رينيه ليمانوار » : « الحق أننا لم نقم بواجب الرجال المهذبين بإزاء رفيقاتنا فى الرحلة ، فى حين تقتضينا آداب اللياقة أن تحسن مسامرتهن » .. ثم التفت إلى جارته البارونة الشابة « دى ستيرين » – التى كانت تقاوم النعاس جاهدة – وقال لها مداعباً : « أراهن أنك تفكرين فى زوجك يا عزيزتى البارونة .. ولكن اطمئنى ، أنه لن يعود قبل يوم السبت ، فأمامك إذن أربعة أيام أخرى ! » .. فأجابته بابتسامة ناعسة وقالت : « يا لك من وغد ! » .. ثم نفضت رأسها لتطرد النوم عنها ، وتوجهت إلى رفقائها قائلة : « ما هذا ؟.. أليس فى جعبة أحدكم نادرة طريفة تضحكنا ؟.. وأنت يا مسيو (شينال) .. يقولون : إنك تملك ثروة من الذكريات أضخم من ثروة دوق ريشليو ، فهلا رويت لنا إحدى قصصك الغرامية الشائقة ؟ » .

وابتسم « ليون شينال » – وكان رساماً طاعناً فى السن، عرف فى شبابه بأناقته وقوته ولطف معشره – ثم أمسك بلحيته البيضاء الطويلة ، وراح يتخللها بأصابعه مفكراً .. وبعد لحظات ، رفع رأسه وقد بدا عليه الجد الصارم . وقال : « سيداتى .. أخشى ألا تكون القصة – التى سأسرد وقائعها عليكن – مسلية ، أومضحكة كما تتوقعن . فهى قصة أتعس مغامرة غرامية مرت بى فى حياتى . وأرجو مخلصاً ألا تمتحنكن الأقدار أو تمتحن أحداً من أعزائكن بتجربة أليمة من نوعها !

– ١ –

● « كنت – فى تلك الأيام – فى الخامسة والعشرين من عمرى ، أقوم بجولات على ساحل (نورمانديا) ، حاملا حقيبتى على ظهرى ، متنقلا من جبل إلى جبل ، بحجة دراسة الطبيعة ورسم صور لها . وليس أمتع من حياة التجوال المرحة الطليقة التى يكون الإنسان فيها حراً مطلق الحرية ، لا يعبأ فيها بشىء ، ولا يتقيد بقيد أو يلتزم بعمل أو واجب ، من أى نوع كان . إنه لا يجد ما يضطره إلى التفكير فى أمر غيره !.. وإنما يمضى على غير هدى فى أى اتجاه يروق له ، بغير دليل يرشده سوى نزواته ، ولا مشير أو ناصح غير عينيه .. يحط رحاله فى المكان لأن غديراً أغراه بالتوقف لتصويره ، أو لأن رائحة طعام شهى – منبعث من إحدى الحانات – قد جذبته ليأكل !.. وأحياناً يكون « تقرير مصيره » أو اختيار

طريقه خاضعاً لوحى زهرة عبقة أسرت خياشيمه ، أو نظرة ساذجة من عينى فتاة فى حانة أسرت قلبه !

« لا تحتقرننى من أجل ميلى لأولئك القرويات ، فلهن روح أصفى وشعور أرق مما لغيرهن ، أما عن خدودهن النضرة ، وشفاههن الشهية فحدثن ولا حرج .. وأما قبلاتهن القلبية الصادرة عن رضاء واختيار ، فلها طعم الفاكهة التى تنمو فى الأحراش !.. والحب كما تعلمن له دائماً ثمنه الذى ينبغى أن يبذل .. والقلب الذى يخفق حين يظهر الحبيب فى المكان ، والعين التى تلمع حين يمضى الحبيب بعيداً ، كلها انفعالات نادرة ، عذبة ، غالية .. إلى حد يجب معه ألا تحتقر قط !

لقد كانت لى مواعيد غرامية فى حظائر ماشية ، وبين أجران غلال .. وفى رأسى ذكريات جلسات فوق مقاعد خشبية قذرة وصلبة ، وقبلات شهية مجردة من الرياء والتكلف ، أرق وأعذب وأكثر إخلاصاً من قبلات النسوة المتأنقات ، المترفات !

« لكن أجمل ما يعشقه الإنسان حين يطوف أقاليم الريف ، هو الريف نفسه : الغابات ، وشروق الشمس ، وحمرة الشفق ، وساعة الغسق ، وضياء القمر .. فهذه المشاهد فى نظر الرسام رحلات « شهر عسل » مع الطبيعة العذراء .. يختلى فيها بها خلوة طويلة هادئة ، وينام فى حقولها على فراش من أزهار « المرجريت » والزنابق البرية ، ويرقب بعينين مفتوحتين انحدار الشمس إلى قبرها

ساعة الغروب ، ويرنو من بعيد إلى شبح القرية الصغيرة ، ينهض فى وسطها برج الساعة التى لا تلبث أن تدق معلنة انتصاف الليل !

« وقد يجلس إلى جوار نبع ماء ينبثق تحت قدم شجرة بلوط ، وسط إطار من الخضرة والأعشاب الزاهية المليئة بالحيـاة .. ثم يظمأ فيجثو على ركبتيه ويمد رأسه كى ينهل من المورد العذب ماءه البارد الزلال ، فيبتل شاربه وأنفه ، ويشعر وهو يشرب بلذة حسية ، كما لو كان يقبل الربيع ، شفة إلى شفة !.. وأحياناً ، يعثر ببقعة عميقـة تتخلل مجارى تلك الغدران الصغيرة ، فيخلع ثيـابه ويلقى بنفسه فيهـا ، كى يستمتع من قمة رأسه إلى قدمه بدغـدغة الميـاه الباردة على جلده ، ورعشة التيار اللطيفة ، وعناق الأمواج !

« وعلى هـذا المنوال يشعر السـائح بالغبطة وهو فوق التلال ، وبالنشـوة على ضـفاف البحيرات ، وبالبهجـة حين يتوج قرص الشمس بهالة من الأشعة الدموية الحمراء ، وحين يلقى انعكاسـاته القانية على مياه الأنهار .. وفى الليل ، تحت ضوء القمر وهو يسبح فى الفضاء ، يفكر المرء فى أشياء خاصة ، ويحلم أحـلاماً غريبة لم تكن لتخطر قط على باله فى ضياء النهار الساطع !

• • •

● « وفى سياحتى تلك ، غـادرت (فيكامب) متخـذاً طريق السـاحل المؤدى إلى قرية (بينوفيل) الصغيرة ، وهو طريق مرتفع فوق البحر تتدلى منه صخور تشرف على المـاء . وكنت قد قضيت

ساعات الصباح سائراً بخطوات واسعة ، فوق الأعشاب والحشائش المبتلة – الشبيهة ببسـاط من السـندس الأخضر – أغنى جـذلا وأنا أرقب طيراً من طيور البحر يسبح بأجنحته البيضـاء القصيرة فى السماوات الزرقاء ، فى بطء وتكاسل ، أو أمد بصرى إلى رقعة المحيط الشاسعة الخضراء ، أو أتابع أشرعة أحد قوارب الصيد .. وبالاختصار ، كنت قد قضيت يوماً سعيداً ، فى جو من الحرية والانطلاق ..

« وأرشدنى أحـدهم إلى حانة يقضى فيها السياح لياليهم ، يحيط بها فناء كبير ويظلها صفان من الأشجار .. وكانت تديرها امرأة تدعى « الأم ليكاشور » ، وهى عجوز ريفية متغضنة الوجـه ، من الطراز العتيق ، تستسلم دائماً لضغط العادات والتقـاليد الجـديدة والآراء العصرية بشىء من التأفف والاحتقار ..

« وكنا فى شهر مايو ، فكان أول ما طـالعنى فى حـديقة الخان شجيرات التفاح التى فرشت أرضها ببساط من براعمها التى كانت تتسـاقط على الناس والأرض بلا انقطـاع . ثم قدمت نفسى إلى صاحبة الخان قائلا : « هل عنـدك غرفة لى يا مدام ليكاشور ؟ ».. وكأنمـا أدهشها أن أعرف اسمها ، فرفعت حاجبيها بحركة غـير إرادية ، وأجابتنى : « هذا يتوقف على حظك .. فإن جميع الغرف مؤجرة فعلا ، على أنه لن يضيرنى أن أبحث لك عن مكان » .

وبعد انقضـاء خمس دقائق كنا قد اتفقنـا ، ووضعت حقيبتى

على البلاط العارى فى الغرفة المتواضعة التى قادتنى إليها . وكان أثاثها مكوناً من سرير ، ومقعدين ، ومائدة صغيرة ، ومنضدة عليها « إبريق وطشت » للاغتسال ... وكان بالغرفة باب يتصل بالمطبخ الواسع الذى يملأ جوه الدخان ، والذى كان النزلاء يتناولون فيه طعامهم مع أهل المزرعة ومع صاحب المزرعة الأرمل ..

« ولم أكد أستقر بغرفتى ، حتى غسلت يدى ورتبت أمتعتى ، ثم خرجت إلى الحانة ، فوجدت صاحبتها العجوز تشوى كتكوتاً للغداء ، وترقب آنية الطعام الضخمة القائمة فوق النار ، وقد أحالها الدخان الكثيف إلى لون الفحم .. فقلت لها : « أرى أن الخان مزدحم بالمسافرين فى الوقت الحاضر ! » .. فأجابتنى بلهجة المستاءة : « نعم .. » .

– ومن يقطن الغرفة المجاورة لى ؟

– امرأة إنجليزية نضجت منذ دهر طويل !

« فنفحتها بخمسة دراهم فوق الأجر اليومى الذى اتفقنا عليه ، فى مقابل أن تكون لى حرية تناول طعامى فى الفناء الخارجى حين يكون الطقس معتدلا .. وهكذا وضعت مائدتى فى المكان الذى اخترته . ولم تكد تعد لى الطعام حتى جلست أقضم أطراف « الكتكوت » المشوى بشراهة الجائع ، وأجرع شراب التفاح المعتق ، وأجهز على قطعة الخبز الأبيض الشهية التى زادها مساغاً انقضاء أربعة أيام على خبزها ! وفجأة ، فتح الحاجز الخشبى

الذى يتوسط السور الخارجى ، ودخلت منه مخلوقة غريبة المنظر ، طويلة جداً ، ونحيفة جداً ، تضع على كتفيها شالا من الطراز الاسكتلندى له حافة حمراء .. يكاد يخيل للناظر إليها أنها بلا ذراعين لفرط نحافتهما ، لولا المظلة البيضاء المرفوعة فوق رأسها ، والتى لابد لها من ذراع تحملها ! . وكان وجهها وجه مومياء ، تحيط به ضفائر – كالسجق – من الشعر الأغبر ، تقفز مع كل خطوة تخطوها ، حتى لقد ذكرتنى – بغير ما مبرر أدريه – بسمكة من أسماك « الرنجة » فى طبق ، محوطة بلفافات من الورق المزخرف .. ولم تكد المرأة تحاذينى حتى غضت من بصرها ومرقت مسرعة إلى الداخل ..

« أيقنت إن تلك المخلوقة هى جارتى الإنجليزية العجوز التى حدثتنى عنها صاحبة الحانة .. وأثارت هيئتها فضولى ، فانشغلت بالتفكير فى أمرها برهة .. ولكننى لم أرها فى ذلك اليوم مرة أخرى .

• • •

● « وفى اليوم التالى ، بينما كنت أرسم لوحة عند نهاية الوادى الجميل الممتد حتى بلدة (اتريتا) ، رفعت عينى عن غير قصد ، فلمحت فوق قمة المنحدر « شيئاً » متشحاً بزى عجيب ، وكأنه صار خشبى رشقت فيه طائفة من الأعلام المنوعة .. وكانت « هى » ! .. وما أن لمحتنى حتى اختفت !

« وحين عدت إلى الخان وقت الغداء ، حرصت على أن أتخذ

مجلسى حول المائدة الرئيسية ، كى أتعرف إلى تلك المخلوقة العجيبة. لكنها لم تستجب لمحاولاتى التمهيدية المؤدبة ، ولا أبدت التفاتاً لعباراتى وملاحظاتى ، برغم أنى كنت أصب لها الماء فى كأسها ، وأقرب صحاف الطعام منها بشهامة ومروءة مقصودتين !.. بل كان أقصى ما تلقيته منها رداً لجميلى هزة خفيفة من رأسها تكاد لا تلحظ ، وكلمة أو كلمتين بالإنجليزية غمغمت بهما بصوت لا يكاد يسمع !

« وهكذا لم أجد بداً من الانصراف عن الاهتمام بها ، بالرغم من أننى لم أستطع صرف ذهنى عن التفكير فيها من وقت لآخر .. فجعلت أستدرج « مدام ليكاشور » إلى الحديث عنها حتى استنفدت فى خلال ثلاثة أيام ، كل معلوماتها عنها .. فعرفت أنها تدعى « مس هارييت » ، وأنها وفدت على قرية (بينوفيل) منذ ستة أشهر ، لتقضى فصل الصيف ، فإذا بها تستطيب المقام هناك ، ولا تبدو عليها نية الرحيل .. ثم أضافت صاحبة الخان إلى ذلك بعض ملاحظاتها الشخصية ، فقالت: إنها لا تتكلم قط أثناء تناول الطعام ، وإنما تأكل ما يقدم لها بسرعة ملحوظة ، ثم تنهض كى تستأنف مطالعاتها فى الكتب الدينية التى توزع نسخاً منها على كل من تقابله ، حتى لقد بلغ نصيب قسيس القرية أربعة من كتبها !.. وكانت كثيراً ما تقول لصاحبة الخان فجأة وبلا مقدمات : « إنى أحب إلهى أكثر من كل شىء ، وأعبده فى كائنات خليقته ، وأمجده بتقديسى للطبيعة بأسرها .. بل إننى أحمله دائماً فى قلبى » !..

ثم تردف عبارتها بإهداء محدثها إحدى نشراتها الدينية !

« ولم تكن مس (هارييت) محبوبة فى القرية ، وكان ناظر المدرسة يصفها بأنها ملحدة ، وإن معتقداتها الدينية ليست سليمة من الشوائب !.. أما القسيس ، فحين سألته (مدام ليكاشور) رأيه فيها ، أجابها بقوله : إنها تبنى إيمانها الدينى على أسس خاطئة ، لكنها تبدو طاهرة الذيل ، حميدة الخلق » .

« وكان طبيعياً أن تلقى هذه الآراء فى رءوس البعض ظلالا من الشك فى حقيقة أمرها ، فانقسم الناس شيعاً فى حكمهم عليها .. لكن الجميع اتفقوا على أنها امرأة غنية ، وأنها قد قضت حياتها جائلة فى بلاد الأرض كلها ، بعد أن تنكرت لها أسرتها .. أما لماذا تنكرت لها أسرتها فذلك ما لم يعرفه أحد ! » .

« والواقع إنها كانت امرأة من ذلك الطراز من الناس ذوى المبادئ الرفيعة ، من فئة الطهريين المتعصبين — « البيوريتان » — الذين تنتجهم إنجلترا بسخاء عجيب !.. إحدى أولئك العوانس الطيبات المزعجات اللواتى يبدون كالرؤى المفزعة حول موائد الفنادق الأوربية الكبرى .. يفسدن جو إيطاليا ، ويسممن هواء سويسرا ، ويجعلن من مدن البحر الأبيض الجميلة أماكن كريهة منفرة !.. ويحملن معهن — حيثما ذهبن — نزواتهن الشاذة ، وترمتهن العتيق ، ووجوههن الكالحة ، وتلك الرائحة العجيبة العالقة بهن ، التى توحى إلى المرء بأنهن يقضين لياليهن داخل أكياس من

المطاط !.. الأمر الذى يجعلنى لا أكاد ألمح إحداهن فى مكان حتى ألوذ بالفرار ، كالطير الذى يفزع من شبح الصياد !

« أما فى هذه المرة ، فإن طابعاً فريداً فى تلك العانس جعلنى لا أنفر منها !.. بعكس صاحبة الخان التى كانت تمقت بطبعها كل جديد مستحدث ، فأضمرت فى قلبها للعانس المتطرفة شعوراً بالكراهية والازدراء .. وأوحى لها شعورها هذا بتسمية مبتكرة تفتق عنها ذهنها . فأطلقت عليها لقب « الشيطانة » .. وبدت لى التسمية طريفة فصرت لا أراها مرة حتى أجد لذة عجيبة فى أن أهمس لنفسى بتلك الكلمة « شيطانة ! » ، وصرت أسأل الأم ليكاشور عنها بقولى مثلا : « كيف حال شيطانتنا اليوم ؟ » .. فتجيبنى فى انفعال : « ماذا تظن يا سيدى ؟ لقد أحضرت إلى غرفتها ضفدعة مجروحة ، فغسلتها فى حوض الغرفة وضمدت لها جرحها كما لو كانت إنساناً .. فإذا لم يكن هذا تهوساً وقذارة فماذا يكون ؟! » .

° ° °

● « وفى مناسبة أخرى ، صادفت العانس أثناء سيرها بمحاذاة الخليج صياداً معه سمكة كبيرة حية كان قد اصطادها ، فابتاعتها منه ، ثم ألقت بها فى البحر من جديد !.. وبالرغم من الثمن السخى الذى دفعته للصياد ، فإن تصرفها استثاره وأغاظه أكثر مما لو وضعت يدها فى جيبه واستولت على ماله .. بل إنه ظل شهراً لا يتحدث

عن تلك « الفعلة » ، إلا وينفعل غضباً ويصفها بأنها إهانة جارحة له !.. والحق أن الأم ليكاشور قد وفقت وألهمت بوحى من عبقريتها حين أطلقت على مس هاريبت لقب « الشيطانة ! » .

« لكن صاحبة الخان لم تكن الوحيدة التى أخذت على عاتقها الزراية بالعانس الإنجليزية ، فقد جاراها فى ذلك آخرون ، منهم « سابور » خادم حظيرة الجياد الذى قال عنها بلهجته الخبيثة : « إنها ساحرة شريرة استنفدت أيامها على الأرض ، وآن لها أن تموت ! » .. أما ساقية الحانة الطيبة القلب « سيليست » ، فكانت تخدم النزيلة الإنجليزية بتأفف وضيق ، ربما لكونها أجنبية من جنسية أخرى ، ولغة أخرى ، ومذهب دينى مخالف .. فى الوقت الذى احتدمت فيه الخصومة والتنابذ بين الكنيسة الفرنسية الكاثوليكية والكنيسة الإنجليزية الإنجيلية » .

« وكانت مس هاريبت تقضى أوقاتها فى التجوال بأنحاء الإقليم ، تتملى بجمال الريف ، وتمجد الله فى سحر الطبيعة التى أبدعها . وذات مساء ، كنت أتنزه فى الحديقة ، فلفت نظرى « شىء » أحمر مختبئ بين أغصان الأشجار ، فلما نحيت الأغصان جانباً ، وجدت مس هاريبت جاثية على ركبتيها تصلى .. وفوجئت المسكينة بمرآى ، فارتبكت ، وهبت واقفة على الفور وفى عينيها نظرة الهرة المتوحشة التى ضبطت تسرق شيئاً ! » .

« وكان يحدث أحياناً أن أكون منشغلا بعملى بين الصخور

المطلة على البحر ، فأراها واقفة على شاطئ الخليج بلا حراك مثل عمود « السيمافور » تحدق فى البحر العريض الذى تبرق مياهه تحت أشعة الشمس ، أو ترفع بصرها إلى أديم السماء الملطخة برقع من السحاب الأحمر المشتعل بالنار . وأحياناً أخرى كنت أصادفها فى بطن الوادى تسير مسرعة بخطاها الإنجليزية المطاطة ، فأتجه إليها مدفوعاً بدافع غريب ، لا لشىء إلا لأرى وجهها الجاف المتغضن وعينيها المضيئتين بضياء السعادة الباطنية العميقة !

« .. أو كنت أعثر بها فى ركن أحد الحقول جالسة فوق الحشائش تحت ظل شجرة تفاح ، وإنجيلها الصغير مفتوحاً فوق ركبتها ، بينما نظراتها المتأملة عالقة بالأفق البعيد » .

« وتوالت الأيام وأنا أزداد تعلقاً وشغفاً بتلك البقعة الهادئة من الريف ، وكأن ألف رباط ورباط يشدنى إليها ويحببنى فى أرضها الطيبة ، الصحية ، الجميلة ، الخضراء .. التى أشعرتنى بأننى أبعد ما أكون عن الدنيا الصاخبة وضجيج الحياة المتحضرة . بل لم لا أعترف بأن دافعاً أقوى من مجرد الفضول أغرانى بالبقاء فى خان الأم ليكاشور ، لعله الرغبة فى التعرف إلى هذه العانس الغريبة الأطوار ، واستقراء ما يدور فى أعماق نفوس أولئك العجائز الإنجليزيات الجائلات ! »

- ٢ -

« وقد تم تعارفنا فعلا على صورة غير مألوفة .. كنت قد

فرغت من رسم لوحة ممتازة توقعت لها ذيوع الصيت - وحققت الأيام ما توقعته فبيعت بعد خمسة عشر عاماً من ذلك التاريخ بعشرة آلاف فرنك ! - وكانت تمثل صخرة كبيرة تغطيها أعشاب البحر الزاهية الألوان ، وتنصب عليها أشعة الشمس كمجرى من الزيت المتماوج لا يكاد يلمسها حتى تشب فيه النار .. والضوء الباقى من النهار يحجب النجوم ، فلا تبدو فى مؤخرة الصورة إلا أشباحها .. وإلى اليسار يمتد البحر العريض ، بحر من الزبرجد فى مثل لون السماء .. » .

« ولم أكد أتمها وأتأملها ملياً ، حتى تولانى شعور بالزهو والرضى عن نفسى وعنها ، فحملتها إلى الحانة وأنا أرقص طرباً . وددت لو أتيح للعالم كله أن يرى فى وقت واحد لوحتى الرائعة .. وأذكر إنى أريتها لبقرة صادفتها فى طريق عودتى وأنا أهتف بها : « انظرى إلى هذه أيتها الغبية .. إنك لن ترى مثلها كثيراً ! » .. وحين بلغت باب الحانة الخارجى ناديت الأم ليكاشور بأعلى صوتى : « تعالى وانظرى .. » .. فجاءت ونظرت إلى الصورة بعينين يتمثل فيهما الغباء ، وبنظرة من النوع الذى يبدو عاجزاً عن التمييز بين ما إذا كانت الصورة لثور أو لبيت أو ...

« وفى تلك اللحظة ، أقبلت مس هاريبت من الخارج .. ومرت بمحاذاتى فى الوقت الذى كنت فيه ماداً ذراعى باللوحة أمامى ، أعرضها على صاحبة الخان ، فلم يكن بد من أن يقع بصر العانس

عليها وهى مارة .. فتوقفت فجأة ، وجعلت تتأمل الصورة كالمشدوهة .. وأدركت أنا ما لفت نظرها ، فقد كانت الصخرة التى رسمتها هى ذات الصخرة التى اعتادت أن تتسلقها كلما أرادت أن تخلو بنفسها كى لا يزعجها أحد ! » .

« أوه ! » .. أطلقت المرأة صيحة الاستغراب هذه ، على الطريقة الإنجليزية ، فاستدرت إليها مبتسماً وقلت : « هذه هى أحدث لوحاتى يا آنسة ... » ، فقالت فى لهجة إعجاب رقيقة : « أوه ، مسيو ... يبدو أنك فنان مرهف الإحساس ! » .

« وصعد الدم إلى وجهى على الفور ، واغتبطت بهذا المديح أكثر مما لو كان قد صدر من ملكة ، بل عرتنى نشوة عذبة غلبتنى على أمرى ، وجعلتنى أود لو كافأت المرأة بقبلة ! » .

« وعندما حان وقت الغداء ، اتخذت مقعدى إلى المائدة بجوارها ، كالعادة . وللمرة الأولى ، خرجت عن تحفظها ، فتبسطت معى فى الحديث . وقدمت لها أنا خبزاً ، وماء ، وبعض النبيذ .. فتقبلت منى كل ذلك بابتسامة جوفاء .. ثم شرعنا نتحدث عن المنظر الذى رسمته . فقالت فى حماس : « لكم أحب الطبيعة ! » .

° ° °

● « وبعد الغداء نهضنا عن المائدة معاً ، وسرنا نتسكع فى فناء الحانة .. وكانت الشمس تصب نورها ونارها على سطح البحر ، فأغرانى جمال المنظر بأن أفتح البوابة المفضية إلى الخارج فى اتجاه

الخليج .. وسرنا جنباً إلى جنب ، تستخفنا السعادة كأى رجل وامرأة توصل كل منهما إلى فهم الآخر والتعمق إلى أغوار مشاعره ودوافعه .. » .

« وكانت الليلة صافية ساكنة ، كتلك الليالى الممتعة التى تغمر بسحرها الجسد والروح ، حتى ليغدو فيها كل شىء بهيجاً جذاباً .. ويترقرق الهواء المنعش محملا بأريج الأعشاب وعبير الأزهار البرية إلى أعماق كيان الإنسان فيعطر خلاياه بعذوبته !.. ومضينا حتى حافة الخليج المطل على البحر العريض الذى تصطخب أمواجه على بعد أقل من مائة متر . وهناك وقفنا نجرع بأفواهنا المفتوحة وصدورنا الرحبة نسمات المحيط المنعشة التى تدغدغ البشرة .. ثم لفت رفيقتى جسمها فى شالها المربع كى تحتمى به من الهواء الرطب ، وثبتت بصرها على قرص الشمس العظيم وهو ينحدر نحو البحر ، حتى لمست أشعته الماء وبدأت تغوص فى اليم تدريجاً إلى أن ابتلعها تماماً .. أمام أبصارنا ! » .

« استغرقت (مس هارييت) فى التأملات ، وهى ترقب — نشوانة — آخر قبس فى ضوء النهار يتلاشى وينطفىء ، وسمعتها تغمغم : « ما أحب هذا المنظر إلى ... » ، ثم استطردت والدمعة تنزلق من عينيها : « ليتنى كنت طائراً صغيراً ، كى أحلق طليقة فى أجواز الفضاء ! » .

« وظلت واقفة كمن سمرت فى مكانها ، تحدق فى الأفق

البعيد وقد احتقن وجهها فصار فى حمرة شالها .. فى ذات الوضع
الذى رأيتها فيه مراراً من قبل . فأشحت بوجهى عنها وأنا أغالب
ميلى إلى الضحك ، ووددت لو رسمت لها رسماً كاريكاتورياً وهى
على تلك الصورة ! » .

« ثم استأنفنا الكلام ، فحدثتها عن فن الرسم ، كما لو كنت
أحدث زميلا فناناً ، مستخدماً أعقد المصطلحات التى يفهمها
محترفو المهنة ، وأصغت هى إلى بانتباه ، باذلة كل جهدها كى
تفهم معانى الكلمات الغامضة التى استعصت عليها .. وبين الحين
والآخر كانت تعلق على كلامى قائلة : « أوه .. فهمت ، فهمت ..
هذا أمر شائق للغاية ! » .

« ثم عدنا أخيراً إلى الخان . وفى اليوم التالى ، لم تكد ترانى
حتى أقبلت على فى شوق ظاهر .. وصرنا صديقين » .

« وأدركت من اختلاطى بها أى امرأة هى .. كانت مخلوقة
ينقصها (التوازن) ، شأن أكثر العوانس فى سن الخمسين ..
ويحتفظ قلبها ببقية من حيوية الشباب وفتوة العذارى .. وكانت
تكن للطبيعة والحيوان عاطفة قوية وحباً أشبه بالنبيذ المعتق ، يعوضها
عن حرمانها من الحب الجنسى .. فكانت تنفعل بحمى النشوة العنيفة
إذا رأت طائراً فى عشه يطوى جناحيه على صغاره التى لم ينبت لها
بعد جناح ، أو فرساً ترعى فى الأحراش وإلى جانبها مهر وليد ! »

« ولم ألبث أن أدخل تصرفها فى روعى إنها تكتم شيئاً تود

لو تبوح لى به ، لكنها لا تجرؤ . وكان خجلها هذا مبعث تسلية
ومتعة لى . وكنت أخرج فى الصباح الباكر وعلى ظهرى أدوات
الرسم ، فتصحبنى هى إلى آخر حدود القرية ، صامتة ، تصارع
نفسها كى تجد الكلمات التى تبدأ بها الحديث معى .. وفجأة ،
تتركنى وتعود أدراجها مسرعة بخطى مترنحة ! » .

« وذات يوم ، وجدت فى نفسها الشجاعة كى تقول لى :
« بودى أن أرى كيف ترسم لوحاتك .. فهلا أتحت لى فرصة
إشباع فضولى إلى ذلك ؟ » .. وصعد الدم إلى وجهها وهى تنطق
بهذه العبارة ، كأنما قد تفوهت بكلمات مشينة !.. ولم أبخل عليها
بما طلبت ، فقدتها إلى بطن الوادى الصغير ، حيث كنت قد
بدأت لوحة جديدة .. ووقفت هى إلى جوارى تتابع حركات
ريشتى بانتباه عظيم ، وفجأة — وكأنما خشيت أن تكون قد
ضايقتنى — قالت لى : « شكراً !! » ، وقفلت راجعة ! » .

° ° °

● « ولكن لم تمض أيام حتى غدت أكثر ألفة معى ، وصارت
تصحبنى كل صباح ووجهها يطفح بشراً ، وتحت أبطها مقعد
مطوى من القماش ، كانت تأبى أن أحمله لها .. فلا أكاد أبدأ عملى ،
حتى تجلس إلى جوارى وتظل فى جلستها ساعات صامتة بلا حراك ،
تتبع بعينيها طرف ريشتى حيثما تحركت .. وحين تبرز معالم جزء
من الصورة بلمسة خاطفة من الريشة ، لا تملك قمع صيحة الإعجاب

والدهشة والانشراح !.. وكانت تنظر إلى لوحاتى نظرة احترام ، بل شبه تقديس ، لما تفصح عنه من تعبير عن إبداع الخلاق فى خلق الطبيعة الحية !.. بل ما لبثت صورى أن بدت فى نظرها ذات طابع دينى ، حتى لقد صارت المرأة تحدثنى أحياناً عن الله – بفكرة هدايتى ! – وتصوره فى صورة الغاضب من أجل المظالم التى ترتكب تحت سمعه وبصره ، العاجز عن منع ارتكابها !.. وتصور نفسها فى صورة المطلعة على أسراره ونواهيه ، المنوط بها إبلاغ رسالته للناس ، فكانت تقول لى فى كل مناسبة : « الله يريد هذا ، ولا يريد ذاك ! » .. وكأنها ضابط يبلغ جنوده أوامر قائده ! » .

« وصرت أعثر كل يوم ، فى جيوبى ، أو قبعتى ، أو صندوق ألوانى ، أو حذائى الذى أتركه للخادم كل ليلة أمام باب غرفتى ، على تلك النشرات الدينية المنوعة التى كانت كأنما تتلقاها مباشرة من السماء !.. أما أنا ، فصرت أعاملها كما يعامل المرء صديقة قديمة ، بغير كلفة .. لكنى ما عتمت أن تبينت تغييراً طارئاً فى أطوارها ، وإن لم أعره فى البداية كبير اهتمام . كنت أصادفها أحياناً فى بقعة من الوادى أو فى أحد أزقة القرية ، فلا تكاد ترانى حتى تتلاحق أنفاسها فتجلس على أقرب مقعد ، وهى تلهث من فرط التعب أو الانفعال . ويحمر وجهها ذلك الاحمرار التقليدى عند الإنجليز – وحدهم دون غيرهم ! – وبغتة ، وبلا أدنى سبب أو مناسبة ، يشحب وجهها شحوباً شديداً ، وتبدو كأنها على

وشك الإغماء .. ثم تستعيد هدوءها بالتدريج ، فتنحل عقدة لسانها وتكلمنى . وفى وسط الحديث – وبغير تمهيد – تبتر عبارتها ، وتهب واقفة ، ثم تمضى عنى مسرعة بخطى عنيفة تاركة إياى ، أضرب كفاً بكف ، محاولا عبثاً أن أهتدى إلى السر الذى أغضبها منى على هذا النحو ! » .

« وكانت تعود أحياناً إلى الحانة ، بعد مسيرة ساعات على الشاطئ العاصف ، شعثاء الشعر ، فتقصد إلى غرفتها رأساً كى تصلح من هيئتها ، ثم تعود مهندمة .. فأقول لها مازحاً ، وإن بدا كلامى فى قالب جدى : « لكم أنت جميلة اليوم يا مس هارييت ! » .. وإذ ذاك تقفز إلى وجنتيها حمرة خفيفة أشبه بحمرة العذراء التى فى سن الخامسة عشرة .. وتغدو جافة معى بعد ذلك لفترة ما ، تقاطعنى خلالها فلا تمنحنى شرف مصاحبتى وأنا أرسم !.. فكنت أقول لنفسى : « إنها أزمة نفسية عارضة لن تلبث أن تزول » .

« لكن الأزمة لم تكن تنتهى دائماً سريعاً . كنت فى بعض المرات أكلمها ، فتجيبنى إما بعدم مبالاة أو بغضب ظاهر .. وأحياناً كانت تغدو فظة عصبية نافدة الصبر ! ثم مرت فترة لم أكن أراها فيها إلا حول مائدة الطعام ، فكنا نتبادل بضع عبارات مقتضبة !.. وأخيراً انتهى بى التفكير فى علة تبدل أطوارها إلى أنى لابد قد أسأت إليها بغير أن أشعر .. فسألتها ذات ليلة : « لماذا صرت تعاملينني بغير معاملتك الأولى يا مس

هـاربيت ؟ .. بمـاذا أسـأت إليك ؟.. إن مسـلكك يسبب لى ألماً عميقاً ! » .

فأجابت بلهجة غاضبة : « هذا غير صحيح .. غير صحيح .. إن مسلكى نحوك لم يتغير ! ».. ثم اندفعت تصعد السلم إلى غرفتها، وأغلقتها على نفسها !

« وصارت تنظر إلى أحياناً نظرة غريبة ، أشبه بنظرة المحكوم عليهم بالإعدام حين يعلمون أن يومهم الأخير على الأرض قد أقبل !.. كان يكمن فى عينيهـا لون من الحماقة .. حماقة غامضـة وعنيفة معاً .. بل أكثر من ذلك ، حمى .. رغبة فائرة قلقة، لا هى بالمتحققة .. ولا بالمتعذرة التحقيق ! » .

« أجل .. لقـد خيل إلى أن معركة كانت تصطرع فى قلبها .. معركة اقتتل فيها قلبها مع قوة مجهولة كانت تريد إخضـاعها .. أو لعلى كنت مخطئاً ، ولكن أنّى كان لى أن أعرف ؟! » .

- ٣ -

● « ثم جاء اليوم الذى أزيح فيه الستار عن الحقيقة !.. كنت قد بدأت منـذ فترة لوحة جـديدة تمثل غديراً عميقاً ، يجرى فى بطن واد ضيق سحيق ، تحف به أحراش وصفوف متراصـة من الأشجار ، غارقة فى بحر من الأبخرة والضباب ، مسربلة فى ذلك الرداء الهفهاف الذى يرفرف فوق الوديان فى مطلع النهار . ومن وراء هذه الغلالة الرقيقة ، يبدو ، بل يدنو شبحان متعانقان لفتى

وعذراء ، رأسها على كتفه .. والشفاه ملتقية !.. وخلف العاشقين الريفيين ، التمع شعاع من الشمس خلال الأغصان ، فثقب ضباب الفجر ، وأشاع فيه ضوءاً فى لون الورد .. » .

« وبالاختصـار فقد جاءت اللوحة آية فى الروعة والإبداع . وفى اليوم الذى وقع فيه الحادث الذى أعنيه ، كنت أشتغل برسم المنحدر المشرف على الغدير وقد استوحيته من طبيعة المكان المؤدى إلى وادى « اتريتا » .. وصادف أن خيمت على الوادى فى ذلك الصباح تلك الغلالة من الضباب التى كنت أنوى رسمها.. وفجأة برز فى الأفق الذى أرسمه شىء ، شبح ما .. وكانت مس هاربيت! » .

لكنها لم تكد ترانى حتى عمـدت إلى الفرار ، فلاحقتها منادياً : « تعالى .. تعالى هنا يا آنسة .. فلدى لك صورة رائعة ! » .

« وجاءت ، فى مشية تنطق بالتردد والتخـاذل ، فأريتهـا لوحتى . لكنهـا لم تعلق بكلمة ، بل وقفت تتأملها طويلا ، جامدة بلا حراك . وفجأة ، انهمرت من عينيها الدموع .. بكت بعصبية وحرقة كما يبكى الرجال بعد أن يجاهدوا أنفسهم طويلا لقمـع دموعهم ، بلا جدوى ، فيستسلمون لشجنهم راغمين ! » .

« ووجـدتنى أنهض من مقعـدى مضطرباً ، متأثراً ، وقـد هزتنى رؤية ذلك المظهر المفاجئ من مظـاهر الأسى الذى لم أفهم كنهه . وتناولت يديهـا بحركة عطف طبيعية ، مدفوعاً بتلك الغريزة التى توحى للمرء أن يتصرف بأسرع ممـا يفكر » .

« وتركت هى يديها فى يدى بضع ثوان . أحسست خلالها أنهما ترتجفان فى عصبية شديدة .. ثم سحبتهما ، بل انتزعتهما من يدى فى خشونة !.. وأدركت للفور كنه تلك الرعشة .. لقد صدق حدسى . إنها رعشة الحب عندما يصيب المرأة ، سواء فى سن الخامسة عشرة أو فى سن الخمسين !.. كان كيانها كله كريشة فى مهب الريح ، لا سيطرة لها على نفسها !.. وقبل أن أتمالك نفسى لأنطق بكلمة ، انفلتت المسكينة من بين يدى لا تلوى على شىء ، تاركة إياى مشدوها كما لو كنت قد شهدت معجزة خارقة ، مضطرباً كما لو كنت قد ارتكبت جريمة بشعة ! » .

« ولم أعد إلى الحانة لتناول الإفطار . بل مشيت على شاطئ الخليج وبى إحساس من يريد أن يبكى أو يضحك .. لا أدرى أأنظر إلى المغامرة نظرتى إلى ملهاة أو إلى مأساة ؟. كان موقفى يدعو إلى الرثاء حقاً ، حتى لقد خيل إلى أنى فقدت رأسى ! » .

« وجعلت أسأل نفسى : ماذا ينبغى أن أفعل ؟ أولا يحسن أن أبادر بمغادرة القرية فوراً ؟.. وسرعان ما صح عزمى على الرحيل.. فجعلت أتسكع فى أرجاء الوادى حائراً مكتئباً حتى وقت الغداء ، ثم عدت إلى الخان أجر أذيال الخيبة والحسرة على قرب سفرى الاضطرارى ، فوجدت القوم قد بدأوا يتناولون الحساء .. » .

« واتخذت مقعدى حول المائدة كالمعتاد . وكانت مس هاربيت

فى مكانها ، تأكل واجمة ، لا تكلم أحداً أو ترفع عينيها إلى أحد.. وعلى وجهها نفس التعبير الصارم الذى ألفته .. » .

« وانتظرت بصبر نافد حتى فرغ الجميع من الغداء ، ثم استدرت إلى صاحبة الخان قائلا : يؤسفنى يا مدام ليكاشور أن أرانى مضطراً إلى الرحيل من هنا فى أقرب وقت ! » .

وبدت الدهشة والأسف على أسارير المرأة الطيبة ، وقالت فى صوت مضطرب : « ماذا تقول يا سيدى ؟ أتنوى أن تتركنا بعد أن ألفنا صحبتك ؟ » .

« ونظرت إلى مس هاربيت من زاوية عينى . لكنى لم ألحظ عليها أى تغير !.. بعكس خادمة الخان « سيليست » التى أقبلت على تستفسرنى وقد اتسعت حدقتاها استغراباً !.. وكانت سيليست فتاة فى نحو الثامنة عشرة ، متوردة نضرة ، قوية البنية ، بدينة الجسم ، تمتاز عن بنات طبقتها بولعها الشديد بالنظافة والتأنق .. » .

* * *

● « وتوجهت بعد الغداء إلى الفناء العريض ، كى أدخن غليونى تحت شجرة التفاح ، ثم جعلت أذرع المكان ذهاباً وجيئة من ركن إلى ركن ، شارد الذهن ، أستعيد وأجتر الأحداث المفاجئة التى وقعت لى فى الصباح : العاطفة العنيفة التى وجدت نفسى بغتة هدفاً لها ، والذكريات المنوعة التى تداعت فى رأسى على أثر الاكتشاف ، فأضاءت لى مقدمات ذلك الحب التى مرت على بغير أن أتنبه

لمدلولها فى أوانها .. الذكريات العذبة والأليمة فى وقت معاً .. ثم قد أكون فكرت أيضاً فى مغزى تلك النظرة التى رمقتنى بها الخادم حين أعلنت نبأ اعتزامى الرحيل !.. كل هذه الأفكار المختلطة المتداخلة أثارت فى نفسى نوعاً من الانفعال الجثمانى ،أحسست معه فجأة بدغدغة القبلات على شفتى ، وبنار تمشى فى عروقى وتهيب بى أن .. أرتكب حماقة ! » .

« فلما هبط الليل ، وألقى ظلاله القائمة تحت الأشجار ، تبعت سيليست خلسة بخطى متلصصة إلى أقصى الفناء ، حيث مضت لتغلق « عشة » الدجاج .. ثم كمنت لها فى ركن مظلم ريثما تحكم رتاج النوافذ الصغيرة التى تدخل منها الكتاكيت وتخرج .. فلما فرغت من مهمتها وهمت بالعودة ، برزت لها من مكمنى وأخذتها بين ذراعى وأمطرتها بوابل من القبلات المحمومة .. وفيما هى تقاومنى بعزيمة خائرة ، وتضحك كعادتها فى مثل هذه المناسبات، شعرت بذراعى تتراجعان عنها فجأة فى تخاذل ،وقلبى يدق صدرى بشدة كمن تلقى صدمة مباغتة !..ترى من هذا الذى أسمع خطواته خلفى ؟

« .. كانت مس هارييت !.. وقد تسمرت قدماها على قيد خطوات منا كتمثال ، وأخذت تنظر إلينا ولا تتحرك !.. وبعد لحظة كانت قد اختفت فى الظلام من حيث أتت ! » .

« وخجلت من نفسى ، وتولتنى حيرة تفوق ما كان خليقاً أن يتولانى لو أنها ضبطتنى أرتكب جريمة بشعة ! » .

« .. كانت مس هارييت !.. وقد تسمرت قدماها على قيد خطوات منا كتمثال » ..

« ولم أنم فى تلك الليـلة .. أزعجتنى وطـاردتنى ألوان من الأفكار القاتمة ، الحزينة . وخيل إلىأنى أسمع صوت نحيب متقطع ، ولو أنى كنت واهماً فى ذلك! بل توهمت أكثر من ذلك ، توهمت أنى سمعت شخصاً يصـعد ويهبط سلم الخـان أكثر من مرة ، بل ويفتح على باب غرفتى ! » .

« وأخيراً ، قبيل الفجر ، هدنى التعب والإجهـاد فأغفيت . وصحوت متأخراً ، فلم أبرح حجرتى حتى موعد الفطور ، خجلا من أن تلتقى عيناى بعينى مس هارييت . لكن خجلى وحيرتى زايلانى حين هبطت أخيراً فلم أجدها حول المـائدة ، وقال الجميع : إنهم لم يروها فى ذلك الصباح .. فانتظرناها فترة ، لكنها لم تظهر .. وإذ ذاك قصدت الأم ليكاشور إلى غرفتها لتستدعيها .. فلم تقف لهـا فيها على أثر !.. وأيقنا كلنا أنها لابد قد خرجت فى مطلع النهار كما اعتادت أن تفعل أحياناً ، كى تستمتع بمنظر شروق الشمس . ولم يستغرب أحدنا ذلك، فعكفنا على فطورنا نتناوله صامتين .. !

« وعند الظهر ، كان الجو حاراً ، قائظاً ، والهواء ساكناً ثقيلا ، لا يحرك غصناً أو ورقة . وكانت المائدة قد أعدت فى الفناء ، تحت شجرة التفـاح . ومن وقت لآخر ، كان الفتى « ساربور » — سائس الجيـاد — يروح ويجىء حاملا من القبو قنينة من خمر التفاح المعتق .. فقد كنا جميعاً فى أشد حالات الظمأ . أما سيليست ، فكانت تحمل إلينا من المطبخ صحاف الطعام عامرة

بالحم والبطاطس ولحم الأرنب البارد و «السلطة» ، وأخيراً ، وضعت أمامنا طبقاً من الفراولة الطازجة ، كان أول تباشير المحصـول الجديد ، فطلبت من الخادم أن تأتى بدلو من الماء البارد لغسل الفراولة وتبريدها » ..

« لكنها عادت بعد دقائق تقول إن البئر قد جفت من الماء ، وأنها قد أنزلت الدلو إلى آخر الحبل حتى لمس القاع ، ثم رفعته فارغاً كما كان !.. وأزعج النبأ الأم ليكاشور ، فمضت لتتحرى الحقيقة بنفسها ، ثم عادت تقول أنها رأت فى البئر شيئاً غير عادى ، وإن لم تتبين كنهه بوضوح ، ولابد أنه حزمة من القش ألقاها أحد الجيران بدافع الكيد لها ! »

• • •

● « وأثار الأمر فضولى ، فأردت أن أذهب بدورى لكشف ذلك السر الغامض . ولم أكد انحنى بجذعى على حافة البئر حتى لمحت فى جوفها شيئاً أبيض ، لم أستطع تمييزه . ترى ماذا يكون ؟... وإذ ذاك خطر لى أن أدلى مصباحاً إلى جوف البئر ففعلت . ورقص اللهب الأصفر على جدار البئر الحجرية ، فبدأ القاع يظهر بوضوح . وكان أربعة منا قد انحنوا ينظرون بفضول وشـوق . ثم استقر المصبـاح على كتلة مختلطة من السواد والبياض ، غير واضحة المعـالم ، فهتف « سابور » : « إنه حصان .. ها أنا أرى حوافره ..

لابد إنه انفلت من الأحراش فى ظلمة الليل ، فسقط فى البئر وهو يركض بسرعة ! »

« وفجأة مرت بظهرى قشعريرة باردة .. فقد تبينت قدماً بشرية ، ثم ساقاً مكسوة بالثياب .. ثم اكتمل الجسم كله ، ما عدا الساق الأخرى ، التى كانت ولا ريب غائصة تحت الماء !

« وشهقت مذعوراً ، وتولتنى رعدة شديدة هزت الحبل فى يدى فتأرجح ضوء المصباح بين جدران البئر ذهاباً وجيئة . وفى أثناء تأرجحه ، وقع على فردة حذاء . فصحت من فورى : « إنها امرأة ... ولكن من ، من تكون ؟.. يا إلهى ، إنهـا مس هارييت ! »

« كان سابور أربط الجميع جأشاً ، فقد سبق له أن شاهد مشاهد كثيرة مماثلة فى إفريقيا ! »

« أما الأم ليكاشور وسيليست ، فجعلتا تصرخان وتتصايحان فى رعب ، وهما تلوذان بالفرار » .

« وكان لابد من انتشال الجثة ، فربطت الفتى الإفريقى فى طرف الحبل ، وأدرت البكرة برفق ، فهبط الفتى تدريجاً حتى اختفى فى جوف البئر ، ولم ألبث أن سمعت صوته وكأنه منبعث من جوف الأرض ، وهو يصيح بى : « كفى ! » .. ثم لمحت شبحه يلتقط الساق الأخرى من الماء . وحين فرغ من ربط قدمى الجثة ، هتف بى : « اجذب الحبل » .. فبدأت أجذبه بمجهود

شاق ، لكنى شعرت بذراعى تخذلاننى وعضلاتى تتراخى .. فتملكنى الذعر خشية أن ينفلت الحبل من يدى فيسقط الفتى إلى القاع .. فلما برز رأسه فوق حافة البئر ، تنفست الصعداء ، وسألته بلا وعى : « ماذا وجدت ؟ » — كأنما كنت أجهل ما وجد ! — ثم اشتركنا معاً فى رفع الجثة . »

« وكانت الأم ليكاشور والخادم سيليست ترقباننا من بعد ، وهما مختبئتان وراء حائط الحانة .. فلما شاهدتا حذاءى الغريقة يبرزان من داخل البئر ، وفى أثرهما جوربيها ، ثم ساقيها ... هرعتا إلى داخل الخان وقد تولاهما الفزع !

« وكنا قد جذبنا جثة المرأة من ركبتيها حتى أخرجناها من البئر ، فوجدنا رأسها مهشماً اختلطت عظامه بلحمه واسودت معالمه .. وشعرها الأغبر الطويل متهدلا معقداً أشعث . فهتف سابور فى دهشه : رباه .. كم هى نحيلة البدن ! » .

« وتعاونا على حملها إلى غرفتها . ولما لم تظهر واحدة من النسوة فى المكان ، فقد اضطررنا لتهيئتها للدفن بأنفسنا ، فتوليت أنا غسل وجهها المشوه .. وفيما أنا أقوم بهذه المهمة ، لمست أصابعى إحدى عينيها ، فانفتحت قليلا .. وبدت كما لو كانت تتفحصنى بتلك النظرة الشاحبة الباردة الرهيبة .. نظرة الأموات التى يخيل لمن يراها إنها آتية من العالم الآخر ! » .

« .. وبذلت جهدى فى تصفيف شعرها الأشعث قدر طاقتى .

وأصلحت وضع خصلة نافرة منه فوق جبهتها ، ثم جردتها من ثيابها المبللة وقد تملكنى شعور بالخجل، وكأنى قد أتيت فعلا دنساً، فانكشفت كتفاها وصدرها ، وذراعاها الطويلتان النحيلتان كأغصان الشجر ! » .

« ثم هبطت إلى الحديقة أبحث عن بعض الأزهار البيضاء والأعشاب النضرة المعطرة كى أفرش بها فراشها الأخير . واقتضانى عدم وجود أحد غيرى إلى جوارها ، أن أتولى بنفسى جميع المراسم الخاصة بدفنها ، ففضضت خطابها الذى عثرت عليه فى جيبها ، والذى أيقنت أنها كتبته فى آخر لحظة . وقد وجدت فيه وصيتها الأخيرة ، التى التمست فيها أن تدفن فى القرية التى قضت فيها آخر أيامها . وعندما قرأت هذا ، خطر لى خاطر مخيف جثم على قلبى طيلة النهار : ألم تختر قبرها فى ذلك المكان بالذات .. كى أتولى أنا دفنها ؟! » .

• • •

● « وقبيل المساء ، أقبلت نسوة القرية الثرثارات ليشبعن فضولهن برؤية جثة التعسة ، لكنى لم أسمح لواحدة منهن بالدخول إلى الغرفة .. فقد أردت أن أنفرد بنفسى وبضحيتى » !.. وبقيت ساهراً على جثتها الليلة بطولها !

« وعلى ضوء الشموع المتأرجح ، جعلت أتأمل جثة العانس البائسة ، التى ماتت هذه الميتة المفجعة ، بعيداً عن وطنها وأهلها ،

وأنا أسائل نفسى : ألم يكن لها أصدقاء أو أقارب ؟.. كيف قضت سنوات شبابها وطفولتها ؟!.. منذ متى هجرت بلدها وأسرتها وجاءت تضرب فى الأرض منفردة ، ككلبة طريدة ؟.. أية أسرار وآلام ومحن قد انطوى عليها هذا القلب الساكن ، وأوصدت عليها هاتان الشفتان ، واختفت داخل هذا الجسد الهامد ؟.. وأية مأساة غامضة تلك التى طوحت بهذه المرأة ها هنا ، بعيداً عن الوطن ، والأسرة ، والحنان .. والحب ؟ » .

« واسترسلت بى خواطرى إلى نتيجة واحدة : كم فى الدنيا من مخلوقات بائسة ونفوس معذبة ؟.. وشعرت أن مظالم الطبيعة القاسية الخالدة قد ناءت بكل ثقلها على هذه المخلوقة !.. إنها قد فرغت من الحياة بغير أن تتذوق مرة — فيما يلوح — ذلك الأمل الذى يهون الحياة حتى على أتعس التعساء من البشر ... الأمل فى أن تصادف يوماً رجلا يحبها !... وإلا فلماذا كانت تحرص دائماً على الانزواء والفرار من الناس ؟.. ولماذا أحبت دائماً ، بكل عنف ورقة ، جميع الكائنات الحية ، باستثناء كائن واحد : الرجل ؟! »

« وقد تبينت إلى جانب ذلك أنها كانت تؤمن بإله ، تأمل فى أن يعوضها عما قاست فى حياتها من آلام !.. وها هى ذى قد أصبحت جثة لن تلبث أن تتحلل وتغدو تراباً يختلط بالأرض ، فتتغذى عليه الأعشاب التى تنمو فى هذه الأرض، وهكذا تستحيل إلى أعشاب تأكلها الماشية . فتتحول فى أحشائها من جديد إلى

لحم ودم .. ويتغذى الإنسان على هذا اللحم ، فلا تلبث مرة أخرى أن تتحول إلى .. لحم آدمى !.. أما روحها ، التى طالما توهجت ، فقد خمدت أخيراً فى جوف البئر المظلمة ، فما عادت تقاسى وتتألم!

« وتوالت على الساعات ، وأنا فى خلوتى مع الجثة ، مسترسلا فى تأملاتى ونجواى ، حتى أعلن ضوء الفجر الشاحب أخيراً مشرق يوم جديد .. وانساب من النافذة شعاع باهر ارتمى على فراش العانس الطاهرة .. إنها الساعة التى طالما أحبتها .. والتى تصحو فيها الطيور ، فيسمع تغريدها من فوق أغصان الشجر .. » .

« وفتحت النافذة عن آخرها ، وأزحت عنها ستائرها ، حتى تستطيع السماوات كلها أن تطل علينا..ثم انحنيت على الجسد البارد المسجى ، فتناولت الرأس المشوه بين يدى .. وبغير فزع أو اشمئزاز ، طبعت قبلة طويلة على تلكما الشفتين اللتين لم تتلقيا قط من قبل .. تحية الحب ! » .

• • •

● ولاذ « ليون شينال » بالصمت ، فانهمرت دموع التأثر من أعين النساء .. وعقد الوجوم ألسنة الرجال . وكان الحوذى قد غلبه النعاس وهو فى مقعده ، واستراحت الجياد من سياطه اللاذعة ، فأبطأت من خطوها . ومضت العربة فى طريقها على مهل ، كأنما أثقل الحزن ظهرها .. وأمضها الأسى !

[تمت القصة]

• تدور حوادث الرواية فى مدينة (أوران) - بالجزائر - حيث ينتشر وباء الطاعون ، فتحاصر المدينة ، وتعبأ كل القوى لقمع هذا الخطر المفزع الذى يهدد كيان جميع سكانها .. وبينما يحاول البعض مقاومة الوباء ، يرى فيه البعض الآخر أمر القضاء المحتوم ، فيستسلمون له .. ولكنهم جميعاً يظهرون بطولة نادرة ، سواء فى بذل جهودهم أو فى قوة تحملهم .

وتتجه القصة اتجاهاً تصاعدياً كلما تقدم الكاتب بحوادثها وأمعن فى وصف بشاعة المرض والرعب الذى يعيش فيه أهل المدينة ، والذى يلاحقهم فى صباحهم ومسائهم فلا يستطيعون الهروب منه .. حتى يصل بنا الكاتب إلى القمة أو الـ Climax ثم يعود فيهبط بنا تدريجياً إلى حيث يصف لنا مشاعر هؤلاء الناس وقد خلقت منهم التجربة أناساً آخرين ، لكل منهم فلسفته فى الحياة ووجهة نظره ، فقد كان الوباء كارثة مهولة تركت آثارها فى نفسية كل شخص منهم .

وقد اختار « كامى » وباء الطاعون كناية عن الكوارث التى تحيق بالبلاد كالحروب والاضطهادات السياسية والاستبداد ... إلخ .. فمدينة (أوران) الموبوءة ترمز إلى استعمار فرنسا .. وهنا يقف الشعب فى مفترق الطرق ، بين أن يتفرق أو يتكتل ليصمد أمام الخطر الذى يهدد البلاد !

ثم يخرج الكاتب بفكرته إلى نطاق أوسع ، فالطاعون هو الشر

الذى يحيق بالعالم ، وهو حكم القدر الذى يثقل على كاهل الإنسان ، أو الموت الذى يمسك العالم فى قبضته .

ومدينة (أوران) التى تعيش أثناء الوباء فى عزلة عن العالم ، تمثل وحدة الكون السابح بين أجواز الفضاء ، حاملا نصيبه من الشر والفاقة . أما تصدى سكان المدينة للشر فيرمز إلى مختلف وجهات النظر الفلسفية والمعنوية التى يطبقها الناس فى حياتهم : فهناك الأشرار الذين يتحدون وقت الكروب لإشباع ما فى أنفسهم من حب للشر وإمعان فيه ، بل تلذذ بوقوعه ، بحيث لا يستحقون إلا الاحتقار - ومن أمثلة هذا الفريق الشرير المدعو « كوتار » - وهناك فئة أخرى من الناس يحاولون الفرار من تفاهة حياتهم بالبحث عن اللهو والملذات ، فيحمون أنفسهم من الضيق بأعمال لا تقل تفاهة عما كانوا فيه .. ولكنها أعمال تكفى لملء فراغ حياتهم وعقولهم ، أو إرضاء غرائزهم - ومن أمثلة هذا الفريق ذلك الشيخ الطاعن فى السن الذى ينفق وقته فى البصق على القطط ! - ولهؤلاء الشفقة والمغفرة .. ولكنها شفقة تصطبغ بلون من التفاهم والمحبة ، كشخصية « جوزيف جراند » الذى يكرس حياته لتأليف كتاب ولكنه يخشى إنهاء أول جملة لأن فيها شيئاً من الخطورة !

أما الطبيب « ريو » Rieux فيعبر عن فلسفة « كامى » التى ترمى إلى أن الحكمة هى محور الحياة وعربون السعادة . وأن المجهود الذى يبذل بشجاعة يعين الإنسان على أن يسمو على الحياة ومتاعبها

نحو هدف أعلى . فالحياة تتطلب أحياناً مجهودات الأبطال ، وليس من الأنانية أن تتجه جهود الإنسان إلى تحقيق السعادة فى الحياة ، فهى هدف كل فرد يعمل ويكد .. كما أن الحياة لا تخلو من التعاون مع الآخرين ، والتضامن ، والرحمة ، وحب العدالة .. وهى مبادئ تهدف إلى تحقيق سعادة الآخرين .

ولذلك فعندما يجد « رامبير » حبه فيسعى للهروب من هذه المدينة الموبوءة لا يلومه أحد ، لكنه يعود فيفضل – بعد التأهب للسفر – البقاء فى المدينة لمكافحة المرض !

وهناك من يعتقدون أن أهل المدينة يستحقون ما أصابهم ، ولكنهم حين يرون الموت يلاحق الصغار الأبرياء ، لا يملكون إلا أن يتساءلوا : لم كل هذه الأهوال ؟.. وكما يقول الأب « بانلو » : إما أن ينكر الإنسان وجود الله ، لبشاعة ما يحدث فى العالم ، أو يعترف بوجود الله والشر معاً .. وفى هذه الحالة يبذل الإنسان مجهوداً أعظم لكى يحمى إيمانه . وعندما يصاب الأب « بانلو » بنفس الوباء، نراه لا يفعل شيئاً لإنقاذ نفسه، بل ويرفض استشارة الطبيب ، لكى « لا يفر من إرادة الله » . ويعتقد « تارو » والطبيب « ريو » أن هذا الموقف فيه كثير من النبل والمنطق .

و « تارو » و « ريو » شخصان مقتنعان بقيمة الإنسان ، فهو الذى يستطيع بضميره وعقله أن يعطى للحياة وللعالم معنى ، وأن ينظم – بعض الشىء – الفوضى المسيطرة على العالم !.. أما « تارو »

فقد وهب نفسه للحد من المصائب ومحاولة تخفيفها على الناس ، فقد رأى أباه – وكيل النيابة – يطلب رأس متهم ، ثم رأى أمامه شعباً ثائراً وأناساً يتقاتلون باسم المبادئ . وهو يعتبر رسول السلام فى البيئة التى يعيش فيها ، ويدعو – كما دعا تولستوى قبله – إلى عدم استعمال القوة ..

أما الطبيب « ريو » فهو شخص نشيط يميل إلى العمل ، لكنه يرى كل يوم ما يدخل الشك إلى نفسه وما يدعوه إلى أن يغلف شعوره وإحساسه بشىء من الخشونة والقوة ، فهو طبيب لديه الوسائل التى يكافح بها الوباء ، لكنه يرى أن من الصعب التغلب عليه .. فهو يأخذ من الحياة مكانه ويعرف أن كل شىء نسبى ، ويميل إلى أن يكون عملياً أكثر منه خيالياً ، فهو لا يهدف إلى أن يصبح بطلا أو قديساً ، ولكنه يريد أن يؤدى واجبه على أتم وجه ويساعد الناس على أن يكونوا سعداء .

وبذلك نرى أن قصة « الطاعون » تظهر الجانب الإنسانى لكامى .

والآن ، تعال معى نستعرض الهيكل الرئيسى للقصة :

الطـاعون

• إن الأحـداث التى تمر بمدينة (أوران) تعتبر أحداثاً جسيمة بالنسبة لهذه البلدة الصغيرة التى تقع على ساحل الجزائر ، فهى بلدة هادئة بعيدة عن كل ضجيج وضوضاء ، لا تعرف من الربيع غير اسمه ، وصحو سمائه ، بينما تحرق شمس الصيف منازلها ذات الطابع المتقشف . أما الخريف فيغمرها بغيثه المنهمر ، ولا تتمتع البـلدة بأيام جميلة إلا فى الشتاء .

ويعتمد أهل مدينة (أوران) على التجارة بصفة خاصة ، فهم أناس كادحون يقضون النهـار فى مزاولة نشـاطهم ، أما سهراتهم فيقضونها فى المقـاهى أو المتنزهات وغيرها . وهم جادون فى عملهم متحابون ، إذ ليس لديهم من الفراغ ما يسمح بقيـام الخـلافات والمنازعات !

وفى هذه المدينة يجـد المريض نفسه وحيـداً ، بعيداً عن أى عناية ، بل إنه يشعر بالوحـدة القـاتلة ، وربمـا يرجع ذلك إلى كثرة الأعمال التى تسلب أصحابها أوقاتهم ، هذا إلى جانب حرمان البلدة من الإسعافات الطبية الضرورية لمواجهة مختلف الأمراض .

فى صبيحة يوم ١٦ إبريل من تلك السنة (١٩٤٠) ، بينما كان الدكتور « ريو » خارجاً من مكتبه متوجهاً نحو السلم ، إذ اصطدمت قدمه بفأر ميت ، فأزاحه بلا اكتراث وهبط السلم ، ولكن الأمر

لم يلبث أن استرعى انتباهه فعاد لينبه البواب . كان وجود هـذا الفأر بمثابة فضيحة بالنسبة لميشيل البواب الذى كان يعنى كل العناية بسلم العمارة . ولمـا عاد الدكتور « ريو » فى المساء رأى فأراً كبيراً يترنح فى خطوات مضطربة ، باحثاً عن مكان بعيد عن صـوت الأقدام ، ولكنه سرعان ما انقلب على ظهره والدم يتدفق من أنفه .. فدهش الطبيب لهذا الأمر ، واسترعى انتباهه هذا الدم المتدفق !

.. ثم تكررت هذه الظاهرة ، فاعتقد البواب أن الغلمان الأشقياء يريدون معاكسته وإغاظته بإطلاق هذه الفئران الميتة فى سلم العمارة ..

وإزاء هذه الظاهرة رغب الدكتور «ريو» فى زيارة الأحياء الفقيرة ، فلاحـظ أيضاً عدداً كبيراً من الفئران الميتـة متناثرة فى الطرقات بجوار الأرصفة ، وفى سلال المهملات ، وكذا فى المخازن والمصانع !

.. وأخذ الناس يتبادلون الملاحظات حول هذه الظاهرة الغريبة ، فقد بلغ عدد الفئران فى يوم واحد ٦٢٣١ فأراً !.. وبعـد ثلاثة أيام ارتفع هذا الرقم إلى ٨٠٠٠ !.. فبدأ الذعر يدب فى المدينة ، ونشرت الصحف هـذه الأنباء ، وتتابعت الأيام وانطفأت وراء جدران المنازل أعمار كثيرة ، ولكن أحداً لم يدر عنها شيئاً !

وذات يوم علم الدكتور « ريو » بمرض بواب منزله فذهب ليفحصه فوجـده يتقيأ مادة تميل إلى الاحمرار ، بشدة تكاد تقتلع جذور أحشائه ، بينما تضـخمت غدد رقبته ، وتورمت أطرافه ، وارتفعت حرارته إلى تسع وثلاثين درجة ونصف .. فوصف له

تعاطى السوائل ، وعلى أثر ذلك هبطت حرارة المريض بعض الشيء ، لكنها سرعان ما ارتفعت إلى أعلى مما كانت عليه ، وامتلأ جسمه بالخراريج والبقع السوداء التى تناثرت على بطنه ، وتحت إبطيه .. ثم مات البواب بعد عذاب وهذيان داما أياماً .

* * *

● ختمت وفاة البواب فترة القلق والحيرة والشك ، وبدأت فترة جديدة يسودها الذعر والخوف . وبدت الحيرة على وجه الدكتور « ريو » ، فقد أسفرت أبحاثه فى المعمل عن وجود جرثومة الطاعون ، ولكنه لم يصدق عينيه .. ووقف وراء نافذة حجرة مكتبه يفكر ويطيل التفكير : « هل يعقل أن يحل الطاعون بهذه المدينة الهادئة ؟ » .

لقد ابتلى العالم مرات عديدة بالحروب والأوبئة ، ومن شأن الإنسان ألا يصدق الكوارث إلا بعد وقوعها ، وحينئذ يشعر الإنسان بالقلق . ولكنه قلق ممزوج بالأمل ، الأمل فى أن تنتهى الكارثة سريعاً . وكيف لا تسرع بالرحيل وأهل هذه المدينة أناس شيمتهم الطيبة وعمل الخير وأداء الواجب ؟ ربما كان هذا حلماً مزعجاً لن يلبث أن يختفى ، فيفيق منه الجميع وتعود الحياة إلى مجراها الطبيعى ، هادئة لطيفة كما كانت ..

ولكن عدد المرضى يزداد .. ودلت الإحصاءات على أن عدد الموتى أصبح رهيباً !.. واسترسل الدكتور « ريو » فى تفكيره العميق ، وجالت بخاطره وجوه أصدقائه ومعارفه من أهل البلدة .

إنهم يروحون ويغدون ، يعملون بالليل والنهار وهم ممتلئون بشراً وأملا ، بينما هو كطبيب يعرف مدى خطورة هذا الوباء وقسوته .. ويا للهول حين يتصدى المرض لهذه الحياة الدافقة فيطويها فى سكون الموت الرهيب !

وأخذ الدكتور « ريو » يستجمع كل معلوماته عن هذا المرض . فهو قد قرأ عن الثلاثين وباء التى اجتاحت العالم فى عصور مختلفة ، والتى اكتسحت أمامها حوالى مائة مليون من الضحايا ، وقرأ عن الطاعون الذى حل بالقسطنطينية فأودى بحياة عشرة آلاف نسمة فى يوم واحد !.. وخشى الطبيب أن يسترسل فى هذه الأفكار السوداء ، وحاول أن يطمئن نفسه بأن الأمر لن يتعدى بضع حالات . وراجع فى ذهنه أعراض المرض التى تبدأ بارتفاع فى الحرارة مصحوب بصداع وعطش حاد . وظهور خراريج وبقع سوداء .. ثم هبوط فى النبض ، بحيث لا يكاد المريض يتحرك حركة بسيطة حتى يسلم الروح .

لا ، لم يكن الدكتور يستطيع أن يتصور أن تلفظ كلمة « الطاعون » فى هذا البلد ، أو أن تكون (أوران) مسرحاً للبشاعة التى خلفتها الأوبئة فى البلاد التى نكبت بها !.. وتذكر الدكتور « ريو » أكوام الحطب التى تحدث عنها « لوكريس » والتى كان أهل (أثينا) يقيمونها أمام البحر ليحرقوا فوقها جثث موتاهم الذين أصابهم الطاعون ، وما كان يقوم بينهم من عراك بسبب التسابق

على ذلك كى لا تظل جثث أحبائهم عرضة لأن تنهشها الحيوانات المفترسة !

وقطع تفكير الدكتور « ريو » دخول موظف بالبلدية يشتغل بالإحصاء يدعى « جوزيف جران » ، وقد جاء ليبلغه أن عدد الوفيات يزداد يوماً بعد يوم . قال جران :

– لقد توفى أحد عشر شخصاً فى ثمان وأربعين ساعة !

– يظهر أنه يجب الاعتراف بالأمر الواقع وتسمية الأشياء بأسمائها .

– وما هو هذا الاسم يا دكتور ؟

– لا أستطيع أن أصارحك الآن ، فليس هذا بالأمر الهين .

كان « جوزيف جران » طويل القامة نحيف الجسم ، يسير فى ملابسه الفضفاضة التى كان دائماً يختارها هكذا كى لا تبلى سريعاً ، وعندما يبتسم كانت شفته العليا تكشف عن فم مظلم خال إلا من بضع أسنان تناثرت على فكه الأسفل . وكان يمشى بخطى حثيثة بحيث يكاد رداؤه أن يحف بالجدران التى يسير بجوارها . وكان عمله متواضعاً ومرتبه ضئيلا ، حتى لقد شكا للدكتور « ريو » ضيقه المالى ، لكن تواضعه وحياءه كانا يمنعانه حتى من المطالبة بحقوقه . ولم يكن له من اللباقة أو الدأب ما يجعله يطالب السلطات بوفاء وعودها له . كان جران مرهف الحس ، يتأثر من رنة معينة لأجراس الكنائس ، ويفرح للقاء شخص عزيز ، أو لزيارة أولاد

أخته الذين كان يعترف دون خجل بأنهم أقرباؤه الوحيدون .

وفهم الدكتور « ريو » أنه يحاول تأليف كتاب ، وكانت فى ذلك مشقة كبيرة على جران ، الذى طالما اعترف للطبيب بأن التعبير يخونه دائماً ، بحيث إذا ما بدأ جملة كان من أشق الأمور عليه أن يتمها !.. وكانت حياته مثالية ، لكنه كان عاجزاً عن القيام بالأعمال الضخمة التى تستوجب كفاحاً مريراً أو تتطلب مجهوداً شاقاً ، وإنما كان يؤدى – فى هدوء – الكثير من الخدمات الصغيرة التى لا تكاد تظهر ولكنها مع ذلك كانت هامة بالنسبة للمجتمع الذى يعيش فيه .

° ° °

● واجتمع الأطباء وتناقشوا فيما بينهم ، واتفقوا على الإجراءات الواجب اتخاذها لوقف انتشار الوباء الذى كان يهدد كل يوم عدداً أكبر من السكان . أما اللافتات التى أمرت السلطات بلصقها على الجدران فكانت تحاول التخفيف من وطأة الواقع منعاً لانزعاج الرأى العام ، كى يحتفظ الشعب بهدوئه وسكينته حتى تنقضى العاصفة . كما أمرت السلطات بتطهير الأماكن العامة من الفئران ، وملء المراحيض بالغازات السامة ، وتعقيم المياه ، وعزل المرضى .. وغير ذلك من الإجراءات الوقائية والعلاجية .

وبحث الدكتور « ريو » مع المسئولين مشكلة نقص الأسرة فى المستشفيات ، فتقرر إخلاء مدرسة للأمومة وتزويدها بكافة

المستلزمات الطبية كى تستوعب الازدياد المطرد فى عددالإصابات. وتكلمت الأرقام ، فأسرعوا بطلب المصل من باريس ، ولـكن الكمية التى وصلت لم تكن كافية ، فأرسلوا فى طلب غـيرها . ولما كان عـدد الوفيات بدوره يزداد ، فقـد تشددت السلطات فى إجراءات العزل ، ونظم الجوازات والحجر الصحى .

وجاء الربيع ، وازدهرت الورود ، ولكنها سرعان ما ذبلت ، فإن الناس لم يشعروا بربيع هذا العـام كما كانوا يستشعرونه من قبل .. وسارت عربات الترام خاوية ، وانطوى الناس على أنفسهم فى حياة يسودها الهدوء والانكسار .. فهناك عجوز يجد لذته فى البصق على القطط من نافذة حجرته ، بينما يقضى عجوز آخـر ساعاته الطويلة فى نقل البازلاء من آنية إلى أخرى . وزاول كل فرد أعماله المعتادة داخل بيته .

وقد أصبح الطـاعون مشكلة الجميع منذ اللحظة التى ضرب فيها الحصـار على المدينة . ولم يكن ليـدور بخلد النـاس أنهم بين يوم وليلة سيفترقون عن أحبائهم الذين ودعوهم بالأمس على أمل اللقاء بهم فى الغد ، فقد أغلقت منافذ المدينة قبل إذاعة نبأ الوبـاء ، وامتنع الخروج منها أو الدخول إليها . ولم يجد المحاصرون أمامهم إلا الورق تجرى عليه أقلامهم تعبر عن الشوق والحب للأصـدقاء والأهل والأحباء ، فى سطور ملتهبة .. ولكنهم فوجئوا ذات يوم بمنع المراسـلات البريدية والاكتفاء بالرسائل البرقية ، فعـادوا

يلخصون مشاعرهم فى كلمات موجزة بدت جوفاء غير معبرة ، وإن كانت تنم عن الأسى والحنان والأمل فى اللقاء القريب ..

وازداد شعور الأهالى بالمنفى كلما تذكروا أيامهم المـاضية ، أو حاولوا التطلع إلى المستقبل ، فكانوا يشعرون بسهام الذكرى تخترق أفئدتهم وعقولهم . كان خيالهم يصور لهم صفير القطار الآتى من بعيد، أو رنين أجراس أبوابهم تؤذن بحضور الأهل والأحباء، ولكن خيالهم كان يخونهم ، فالقطارات ساكنة وأجراس الأبواب صامتة !

ولما كان أكثر الناس تشاؤماً قد قدروا أن الوباء سيدوم ستة شهور ، فقـد حاولوا أن يوطنوا أنفسهم على تحمل هـذه المدة ، وعلى أن يستجمعوا كل شجاعتهم لمواجهة التجربة القاسية التى يمرون بها . فإذا طلعت جرائد الصباح بتعليق على سوء الحالة ، أو فاه صديق أو زائر بشكه فى أن تتحسن الحالة سريعاً، انهارت الشجاعة وخـارت القوى وشـعروا بأنهم هبطـوا فى هوة سحيقة ، وامتلأت نفوسهم يأساً وأسى . ولهذا اعتـادوا عـدم التفكير فى مصيرهم وحاولوا أن يعيشوا يومهم لا يفكرون فى شىء سوى حاضرهم . ومع هذا فليس من السهل أن يتجاهل الإنسان الألم فينجو من هـذا الصراع الداخلى بين الأمل واليأس . فكلما حاولوا منع أنفسهم من التفكير فى يأسهم وبؤسهم وقصروا تفكيرهم على حاضرهم ضـاعت منهم الساعات الجميلة التى كان خليقاً بهم أن يمضوها فى مناجاة

أحبائهم . وبذلك أضحت أيامهم عجافاً لا يقوون عليها إلا إذا انغرسوا فى أعماق أحزانهم ، وعاش كل فرد وحيداً منكس الرأس . وبدلا من أن تصقل هذه الوحدة أخلاقهم ، جعلتهم أكثر حساسية !

° ° °

● وذات يوم طرق باب الدكتور « ريو » صحفى يدعى « رامبير » ، جاء ليأخذ منه تقريراً عن حالة الوباء ، ثم اعترف له بحقيقة الأمر : فقد لجأ إليه ليطلب مساعدته فى موضوع حيوى بالنسبة له . لقد ترك خطيبته التى يكن لها كل الحب وجاء إلى مدينة (أوران) زائراً عابراً ، فأدركه الحصار .. وهو الآن يريد أن يخرج من البلدة بأية وسيلة ، فهو غير مقتنع بوجوده هنا ، وقد خلق ليعيش من أجل الحب لا ليكون صحفياً ، فضلا عن أنه ليس من أهل المدينة فكيف يتحمل العذاب والفراق — وربما الموت — وهو لم يكتب له أن يكون من أهل هذا البلد ؟

قال له الدكتور « ريو » : إنه يفهم شعوره ويقدره ، وهو مهتم بحالته ، ولكنه لا يستطيع بعد أن شدد الحصار أن يسمح له بالخروج ، فإن مسئولية مهنته تمنعه من أن يعطيه أية شهادة بأنه ليس مريضاً ، إذ قد يصاب بالعدوى قبيل رحيله بيوم وعندئذ يكون الدكتور « ريو » قد أجرم فى حق ضميره ومهنته . ثم إن الوقت لا يسمح الآن بخروج أى إنسان مهما كانت ظروفه . واتهم « رامبير » الدكتور « ريو » بأنه ينظر للأمور نظرة مجردة ، وهز

رأسه بعصبية وهو يقول للدكتور : إنه يأسف لكونه أضاع عليه وقته . فرجاه الدكتور « ريو » ألا يحمل له أية ضغينة وأن ينبئه بنتيجة مساعيه . ثم أضاف أن هناك طريقاً آخر — غير رسمى — يمكن أن يلجأ إليه « رامبير » ، ولو أنه لا ينصحه باتباعه (ونفهم من هذا أن الوسيلة غير المشروعة هى محاولة الفرار من المدينة خلسة ، بالحيلة !) . ولما ابتعد « رامبير » هز الدكتور رأسه : أنه يعذر الصحفى الشاب لتلهفه على سعادته ، ولكن هل صحيح أنه ينظر للأمور نظرة مجردة ! إن كل إنسان يتمنى السعادة لنفسه وللآخرين ، ولكن الظروف هى التى تدعوه إلى أن ينظر للأشياء هذه النظرة المجردة . نعم ، يجب على الدكتور « ريو » أن يؤدى واجبه ولا شىء غيره فى هذا الوقت العصيب الذى يرتفع فيه عدد الوفيات إلى خمسمائة فى الأسبوع !.. فعندما تحاول الكوارث أن تفنى مدينة بأسرها ، يجب أن ينظر الإنسان للأمر نظرة مجردة ، وكان على الدكتور « ريو » أن يضبط أعصابه ليتحمل بكاء أهل المرضى وصراخهم وعويلهم كلما قرر عزل المريض وإرساله إلى المستشفى .. فكلما سمع الناس أجراس سيارة الإسعاف خيل إليهم أنها أجراس الموت فآثروا إغلاق أبوابهم عليهم وعلى مرضاهم ليعيشوا معهم البقية الباقية من أعمارهم ، طالما كان خروج المرضى معناه عدم عودتهم !.. ومن هنا بدأ الدكتور « ريو » يشعر بمعنى

الكلمة التى وجهها إليه « رامبير » ، فقد كان الصراع قائماً دائماً بين واجبه ومشاعر الآخرين ..

° ° °

● وكانت والدة الدكتور « ريو » تنتظره كل ليلة جالسة إلى جوار الشباك المطل على الشارع حتى يعود من عمله لتسأله نفس السؤال :

– كيف الحال اليوم ؟

– مثل كل يوم .

.. فإن المصل الذى جاء من باريس لبس فعالا ، والدمامل التى تطفح فوق أجساد المرضى لاتطرد الصديد الذى تكون بها ، وكأن موسم تجمدها قد جاء ، فهى تزيد من إيلامهم . ومنذ يومين أصبح الطاعون رئوياً ، واتخذت كافة الإجراءات الوقائية اللازمة وتضاعفت الجهود لمنع انتشار العدوى بانتقالها من فم إلى فم !

وجاء المدعو « تارو » لبزور صديقه الدكتور « ريو » ، فحيا والدته ثم قال له :

– بعد فترة وجيزة لن تجدى جهودك ، فإن الظروف تتفاقم ضدك .

فأومأ ريو برأسه موافقاً : « هذا صحيح » !

وأضاف تارو : « وإنى ألاحظ أن مؤسسة الخدمات الصحية لا تقوم بأعبائها كما يجب ، وإن ما ينقصك هو الوقت والرجال » .

فاعترف ريو بذلك وقال : إن السلطات أعلنت عن احتياجها للمتطوعين ، ولكن عدد المتقدمين قليل ، كما أنهم فكروا فى استدعاء المسجونين للقيام بالأعمال الشاقة .

تارو : إنى أفضل الأحرار .

ريو : وأنا كذلك ، ولكن لماذا ؟

تارو : إنى أكره المحكوم عليهم بالإعدام . إنهم لا يعملون كأحرار .

ريو : وبعد ؟

تارو : لقد وضعت مشروعاً لتكوين فرق من المتطوعين تقوم بالأعمال الصحية . فهل تعتقد كما قال الأب « بانلو » : إن للوباء مزاياه ، وأنه يفتح الأذهان ويدعو إلى التعمق والتفكير ؟

ريو : ككل تجربة فى الحياة ، فهى تكون بعض الرجال ، هل تعتقد فى وجود الله ؟

فاعتدل تارو فى مقعده وقال : « إنى كالتائه فى الظلام ، أحاول أن أرى النور » .. ثم استدار يسأل الدكتور ريو : « لماذا تظهر كل هذا التطوع والأريحية إذا لم تعتقد فى وجود الله ؟.. فربما تساعدنى على تفهم ما لا أفهمه إذا أجبت أنت على سؤالى هذا ! » .

قال ريو : « لقد سبق لى أن أجبت على هذا السؤال بأننى لو كنت أعتقد فى وجود الله لتركت له مهمة شفاء المرضى ،

ولكن طبيعة عملي هي الكفاح ضد الطبيعة كما هي في الواقع » .

تارو : هل هذه هي الفكرة التي كونتها عن مهنتك ؟

ريو : أقول نعم بشيء من الاعتداد بالنفس ، ولكن ليس لدى من الكبرياء إلا أقله ، فإني لا أدرى ماذا ينتظرني ولا ماذا سيحدث فيما بعد . كل الذى أدريه هو أن أمامى مرضى يجب معالجتهم ، وإنى أترك لهم ولنفسى فرصة التأمل فى وقوع الكوارث بعد انتهائها ، مكتفياً الآن بحمايتهم .

تارو : حمايتهم ممن ؟

ريو : لا أدرى ، فعندما بدأت ممارسة هذه المهنة ، فعلت ذلك لاعتقادى أنه عمل مثل أى عمل آخر . وقد رأيت الموت بعينى . هل تعرف أن هناك أناساً يكافحون ضد الموت ؟ هل سمعت امرأة تقول : « كلا » فى آخر دقيقة من عمرها ؟ عندما سمعت ذلك شعرت أننى لا أستطيع تحمل رؤية الموت ولا التعود عليه ، وثرت على أوضاع العالم — وكنت شاباً آنذاك — ومنذ ذلك الحين أصبحت أكثر تواضعاً ، ولكنى بذلت كل جهودى للتغلب على الموت فى كل فرصة سنحت لى .

تارو : وبعد ؟

ريو : وبعد ، وبما أن الحياة تنتهى بالموت ، أفلا ترى أن الأوفق ألا نعتقد فى وجود الله ، وأن نحارب الموت بكل قوانا ، دون أن نرفع بصرنا إلى السماء ، حيث الله صامت ؟!

تارو : ستكون دائماً انتصاراتك على الموت مؤقتة .

ريو : ليس هذا مبرراً لعدم الاستمرار فى الكفاح .

تارو : إنى أتصور إذن ما هو الطاعون بالنسبة لك !

ريو : فشل مستمر .

تارو : من علمك هذه الفلسفة ؟

ريو : البؤس .

وكان الوقت قد تأخر فخرجا من المنزل ، وقد ناهزت الساعة الحادية عشرة ، وسمعا من بعيد جرس سيارة الإسعاف يقطع السكون العميق الذى يخيم على المدينة .

ريو : سأنتظرك غداً يا تارو لأعطيك المصل الواقى ، ولكنى أحذرك قبل أن تنغمس فى هذا العمل : إن الأمل فى النجاة ضعيف !

تارو : بل إننا قرأنا فى تاريخ الوباء الذى حل بمدينة فارسية أن جميع أهلها ماتوا ما عدا الرجل الذى كان يقوم بمهمة غسل الموتى !

ريو : ولكن أخبرنى يا تارو : ماذا يدفعك إلى مشاركتنا فى هذا العمل ؟

تارو : لا أدرى . ربما أكون متمسكاً بقيمة من قيم الحياة ..

ريو : وما هى ؟

تارو : إدراك حقيقة الأمور وتفهمها .

° ° °

● ولم يكن تطوع « تارو » بالعمل النادر ، فإن الإنسان لا يخلو من صفات طيبة ، ولكن الذى يمنعه من عمل الخير هو الجهل . والمحبة الحقيقية لا توجد إلا مع الإدراك التام لحقائق الحياة . وليس المهم هنا هو الإشادة ببطولة هذا الشخص أو ذاك ، بل وصف البؤس المستمر الذى أضنى قلوب سكان المدينة الموبوءة . فقد أصبحت مكافحة الطاعون هى الشغل الشاغل للجميع ، وشعر كل فرد بواجبه نحو الآخرين . ولم يكن ذلك رغبة فى التظاهر بعمل الواجب ، ولا بحثاً وراء فلسفة فى الحياة ، وإنما كان رائد الجميع أن يواجهوا الحقيقة المرة ويمنعوا بأية وسيلة أكبر عدد ممكن من الناس من مفارقة الحياة مفارقة أبدية . فكان عملهم هذا نتيجة حتمية للحالة التى كابدوها ، وكان من الطبيعى أن يسلكوا هذا المسلك .

وانهالت المساعدات على المدينة .. وكلما أدار الدكتور « ريو » مفتاح مذياعه فى أمسياته قبل أن ينام سمع عبارات المواساة والتشجيع تأتى من العالم الخارجى ، ولكنه كان دائماً يشعر بأن هذه العبارات – على بلاغتها – تعبر عن الهوة السحيقة التى تفصل بين المدينة المنكوبة والعالم الخارجى !

• • •

● وبلغت حالة الوباء الذروة ، بينما كان هناك أناس مثل رامبير ما زالوا يحاولون الهروب من المدينة – ولكن فى هذه المرة

عن طريق غير رسمى – فقد دله المدعو « كوتار » على منظمة تقوم بأعمال التهريب ، وكان كوتار نفسه أحد معاونى المنظمة ، إذ كان يبيع السلع فى السوق السوداء .

وقد توجه « رامبير » عدة مرات إلى المكان المعين وفى الميعاد المعين للهروب ، ولكنه لم يجد واحداً من هذين الشخصين اللذين وعدا بمساعدته . وبعد محاولات كثيرة باءت بالفشل ، أحس رامبير بأنه قد فقد لذة التفكير فى خطيئته ! وحتى عندما سنحت له الفرصة – فيما بعد – للخروج ، فإنه فضل أن يعيش مع أهل المدينة ، الذين شاركهم الكثير من آلامهم فأصبح يعد نفسه واحداً منهم . وحين عرض خدماته على الدكتور ريو ، قبلها هذا مرحباً.

• • •

● فى ذلك الوقت من السنة عصفت الرياح المتربة بشدة ، ولم تكن تلقى أى عائق فى طريقها .. وكان الناس يسيرون وقد أحنوا ظهورهم واضعين مناديلهم على أفواههم لمنع دخول الأتربة إليها .. وكانت أعصابهم متوترة ، وأخذ الذين خرجوا من الحجر الصحى يشعلون النار فى مساكنهم ، معتقدين أنهم بذلك سيقبرون الطاعون فى ضرام تلك النيران ، ولكن العواصف كانت تساعد على تطاير الشرارات النارية فتودى بالمنازل المجاورة !.. ولم تلبث أن أوقفت هذه الأعمال الجنونية ، كما حكم بالإعدام على شخصين ضبطا وهما يسرقان منازل مهجورة . غير أن موتهما لم يترك أى أثر فى المدينة ،

فكان بمثابة نقطة فى بحر .. ومنذ ذلك الحين أطفئت أنوار المدينة ليلا ، فباتت وكأنها قطعة من الحجر لا صوت فيها ولا حركة ..

وانطبع الابل المظلم فى قلوب الناس ، وظهرت مشكلة تشييع الجنازات — حين زاد عدد الوفيات بصورة بشعة — فكانت الجثث تنقل إلى المدافن ، حيث ينتظر القسيس وصولها ، فينثر عليها الماء المصلى عليه ثم توارى التراب وتغطى بالطين والرمل . وبعد أن كان أهل الموتى حريصين فى البداية على أداء الفروض الجنائزية بكل دقة ، رأوا أنه من الأصوب أن يتساهلوا ، ومنعوا من دخول أسوار المقابر . وقل عدد الصناديق التى تنقل فيها الجثث فأصبح خمسة فقط ، ونقص القماش الذى يصنع منه الكفن .. وبعد أن كان الرجال يدفنون على حدة والنساء على حدة ، ضاق بهم المكان فاضطروا إلى عدم مراعاة هذه الأمور المتعلقة باحترام الموتى والحياء ، فكانت الجثث تختلط بعضها ببعض . وكان الهواء ينقل فى الصباح رائحة كريهة تحلق فوق الأحياء الشرقية من المدينة ، فجزع أهلها واعتقدوا أن الطاعون يهبط عليهم من السماء !.. وبلغ التشاؤم من نفوسهم مبلغه ، وانغرس اليأس فى قلوبهم ، وبعد أن كانت الذكرى تؤنسهم فى أول الأمر ، أصبحت الآن تؤلمهم ، فكادوا ينسون أن لهم أقارب وأهلا وأحباء .. لقد انخرطوا فى سلك الوباء فأصبح منهم وأصبحوا هم منه !

وكان هناك شخص هو « كوتار » يعيش وكأن هذا الجو خلق

له ، فقد أدهش بعض معارفه بقوله : « إنى سعيد بأن وباء الطاعون يعيش بيننا » ، فقد كان من هؤلاء الناس الذين يعيشون فى أى جو ما دام هذا الجو يجلب الربح !.. وكان يعمل بالتجارة فى السوق السوداء فجمع من ذلك ثروة طائلة ، لكنه أصيب بحالة هستيرية كانت تجعله يطلق الرصاص على المارة من نافذة بيته ، فقبض عليه !

° ° °

● وذات ليلة ، شعر تارو أنه يود الإفضاء إلى الدكتور ريو بأسرار طالما طواها فى نفسه .. فقد حدث فى صباه أن حضر جلسة فى المحكمة بصحبة أبيه — الذى كان من وكلاء النيابة — وسمع أباه يطالب برأس متهم ، فشعر الابن بالحقد على أبيه والاشمئزاز من هذه الأوضاع القائمة ، وآثر الابتعاد عن هذا الأب بعد أن كان يكن له محبة قوية . ولم يكن أبوه جباراً وإنما كان يبدو كذلك أحياناً بحكم عمله ..

وأضاف تارو ، فى حديثه إلى الطبيب :

— هل تشعر يا دكتور ريو بقسوة الحكم بالإعدام ، وببشاعة منظر المحكوم عليه وهو معصوب العينين ، وأمامه على بعد متر ونصف خمسة جنود يصوبون نحو قلبه بنادقهم ، فإذا ما أطلقوا زنادها أحدثت له فى قلبه فجوة كبيرة ، فى حجم اليد ؟! إن كل إنسان مهما كان طيباً قد يأتى على يديه الموت للآخرين !

وكان تارو يرى أن الطاعون هو الشر ، وأن كل إنسان يحمل الطاعون فى نفسه ، فلا يتحرك فمه بكلمة إلا وينقل العدوى المميتة ويتسبب فى موت شخص آخر !.. وهو لا يعنى بذلك المـوت المادى وحده ، بل الموت المعنوى كذلك . إذن كيف يستطيع الإنسان ألا يكون نكبة على الآخرين ؟ إن ذلك يتطلب منه مجهوداً كبيراً جباراً كى يستطيع أن يلزم حدوده وأن يعرف كيف يعبر عن رأيه دون أن يجرح مشاعر الآخرين .. وأن يعيش حراً دون أن يطغى على حرية الآخرين وحقوقهم .. وليس من السهل أن يكون الإنسان قديساً فى هذه الحياة ، وأن يكون دائماً صديقاً لكل من حوله .. « إن جرثومة الشر موجودة فى العالم . أما الصحة ، والنقـاء فيتطلبـان مجهوداً كبيراً وقوة إرادة عظيمة ، والشخص الأمين النقى هو الذى لا يسىء إلى أحد ، وهو الذى يلاحظ دائماً أن تكون أعماله حميدة وعباراته حسنة ، وهو الذى لديه من قوة العزيمة والإدراك ما يجعله دائماً واعياً لـما يعمل وما يقول .

« والشخص الذى يعى دائماً كل حركة من حركاته يفرض على نفسه المنفى والوحدة ، وحدة المتواضع الذى يعرف قيمة كل شىء . وحدود كل شىء ، لا وحدة المتغطرس المتكبر . والواقع أن الشر يأتى من أن الناس لا يعبرون عن آرائهم بوضوح ، فالخطأ يولد الخطأ ، ولذلك آثرت منذ زمن بعيد أن أتعلم كيف أعبر عن رأيى بوضوح ، ولكنى إذا فشلت بعد كل هذه الجهود فى أن أمنع

الشر من جانبى ، فإنى على الأقل سأكون قاتلا بريئاً ! » .

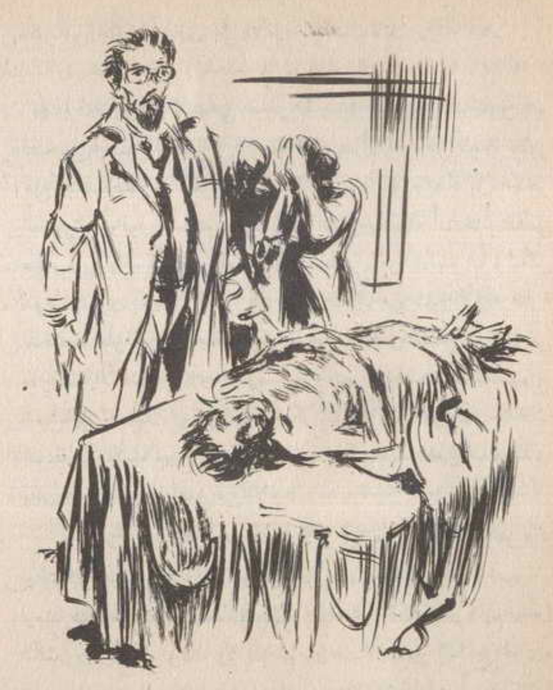
• • •

● وذات يوم ، استدعى القاضى ــ مسيو أوتون ــ الدكتور ريو ليفحص ابنــه المريض ، فلاحظ الطبيب أن أعراض الوباء تظهر على جسد الطفل ، فنقل إلى المستشفى ، بينما نقل والداه إلى الحجر الصحى . وقرر الدكتور ريو بعد عشرين ساعة أن حالة الطفل ميؤوس منها ، فأعطاه المصل الذى أحضره من باريس ، ولـكن دون جدوى . وكان الطفل يتلوى فى فراشه من شدة الألم ، فتارة تتخشب أطرافه ، وتارة أخرى ترتخى . وعانى الطفل من المرض ما يفتت الأحشاء ويدمى القلوب ، وكثيراً ما لوحظت الدمـوع تسيل على خـديه ، وهو يعـانى سكرات الموت .. وبعـد ساعات طويلة من الألم المبرح فارق الحياة ، وعلى خـده هذا الدمع الذى يعبر عن مقدار ما تحمل من آلام !

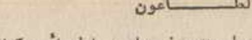
وقد تركت وفاة الطفل أسوأ الأثر فى نفس « الأب بانلو » ، والدكتور ريو ، وتارو ، وجميع من حضروا سـاعاته الأخـيرة . ومنذ ذلك الوقت تغيرت نظرتهم جميعاً للحيـاة ، فرغم أنهم رأوا الكثيرين وهم يموتون ، إلا أن موت هـذا الطفـل الساذج البرىء الذى لا ذنب له ولا خطيئة جعلهم يسـائلون أنفسهم بمـا كانوا يهابون البوح به من أفكار وخواطر تتصل بالله وإرادته العلياء

• • •

● غسلت أمطار الخريف الجو وبدأت تباشير الشتاء ، وكان المرض قد أوقف حملاته الوحشية نوعاً ما ، فهبطت الوفيات ، ونجت بعض حالات كان ميؤوساً منها . وذات يوم ، بينما كانت وطأة الوباء تخف رويداً علم الدكتور ريو بمرض تارو ! وتابع الطبيب الصراع العنيف بين صديقه والموت الذى داهمه كالموج ليكتم أنفاسه الأخيرة فى حشرجة تعتصر القلب .. وتذكر الطبيب كلمة تارو عندما قال له : « إنك دائماً ستخوض معركة خاسرة ضد الوباء » . نعم ، لقد خسر المعركة نهائياً ، وخسر معها صديقه تارو الذى لم يكن قد تمتع بصداقته كما كان يود . وتركت هذه المعركة الأخيرة فى نفس ريو هذا الشعور بالأسى والعذاب النفسى الذى تتركه كل معركة فى نفس القائد الفاشل ، حتى بعد إعلان السلام .. وكان قد أحس عند وفاة ابن القاضى برغبة فى البكاء ، ولكنه شعر عند موت صديقه تارو بألم من نوع آخر يعتصر قلبه. وقد عاش الطبيب هذه الفترة من الزمن مشاركاً مواطنيه كل آمالهم وآلامهم ، فوفى لهم بنصيبه من المحبة . وكلما أراد التعبير عن أشجانه أو مشاعره وجدها تتردد فى نفوس الآخرين ، فأغلق روحه داخل نفسه ليقوى على الاستمرار فى عمله يوماً بعد يوم ، بالرغم من الشعور بالاشمئزاز الذى كان ينتابه فى كثير من الأحيان . ولم يجن من هذه الفترة التى مرت عليه إلا ذكرى الوباء ، وذكرى الصداقة التى لم تدم ، وذكرى حبه لزوجته التى ماتت فى فرنسا



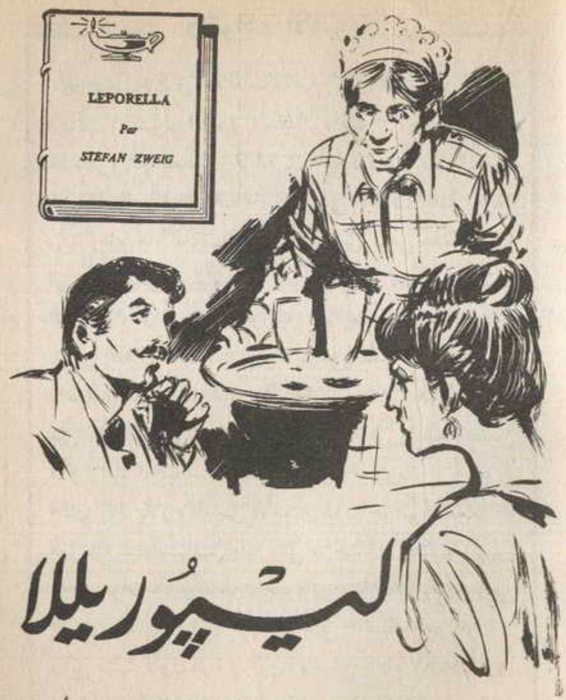
وبعد ساعات طويلة من الألم المبرح فارق الحياة ، وعلى خده هذا الدمع الذى يعبر عن مقدار ما تحمل من آلام !..



– بغير الوباء – بعد أن ودعها عند سفرها من الجزائر وكله أمل في الالتقاء ..

ورفع الحصار عن المدينة ، وذهب الناس للقاء أحبائهم بعد فراق دام شهوراً طوالا ، ورغم أنهم لم يكونوا يشعرون بنفس الرغبة القوية التي كانوا يستشعرونها من قبل ، فإن قلوبهم لم تلبث عند لقاء الأحباء أن فاضت بهذا الشعور العميق الذي كان مكبوتاً طوال الأيام الماضية ، والذي انبثق عندئذ في فيض من الدموع الساخنة .

[تمت القصة]



للكاتب النمسوى الأشهر
ستيفان زفايج

● قدمت لك فى أعداد سابقة من كتابى الكثير من روائع الكاتب النمسوى الأشهر « ستيفان زفايج » . وفى مقدمة هذه الروائع قصصه الخالدة : « أموك » ، و « رسالة من مجهولة » ، و « الخوف » .. وفيما يلى أقدم لك تحفة رابعة من روائع هذا الكاتب الإنسانى المتعمق ، هى هذه القصة التى أطلق عليها « ليبوريللا » . والقارئ للقصة فى لغتها الأصلية ، أو ترجماتها الأوربية ، لا يجد فيها أى إيضاح لمغزى إطلاق لقب « ليبوريللا » على بطلتها ، فى منتصف القصة ، على سبيل المجاز والدعابة .. وذلك لاعتماد المؤلف على ثقافة القارئ الغربى الذى يعرف — من إلمامه بقصص الأوبرات العالمية — شخصية المدعو « ليبوريللو » ، القواد الذى كان يلازم العاشق الأسبانى دون جوان فى مغامراته الغرامية ، ويسهلها له ، على ما جاء فى قصة أوبرا دون جوان — أو « دون جيوفانى » بالإيطالية — وهى الأوبرا المشهورة التى لحنها الموسيقى الخالد « موزار » . والتى مثلت لأول مرة فى أوبرا (براج) عام ١٧٨٧ ، وفى أوبرا لندن عام ١٨١٧ ، وفى أوبرا نيويورك عام ١٨٢٦ .. إلخ .

ويبدو أن « ستيفان زفايج » حين أطلق على قصته هذه اسم « ليبوريللا » — مؤنث « ليبوريللو » — أراد الإشارة

إلى وجه الشبه بين شخصية بطلة القصة وشخصية ليبوريللو المذكور بطل تلك الأوبرا العالمية المشهورة .. وتدور حوادث أوبرا « دون جوان » فى مدينة (أشبيلية) بأسبانيا ، حيث مارس الفارس الوسيم الأنيق دون جوان فنه الخاص فى إغواء أجمل فتيات المدينة ونسائها ، ثم هجرهن ! .. وهكذا نراه يمضى بصحبة خادمه الوفى ليبوريللو ، فيوقع بالحسناء « دونا الفيرا » ، ثم ينبذها لينصب شباكه لابنة القائد دون بدرو — المدعوة « دونا أنا » — ويقتل خلال المحاولة أباها ، فى مبارزة ! .. ويفر العاشق المحترف على الأثر ليحول دفة « جهوده » إلى العروس الفلاحة « زرلينا » ، فيحتال بكل الطرق للتغرير بها وصرفها عن خطيبها ! .. وفى النهاية يقتص شبح القائد القتيل « دون بدرو » من الشاب الماجن ، بأن يلقى به فى هاوية تتلظى فيها النيران .. فيموت شهيد مجونه !

- ١ -

• كان اسمها فى شهادة الميلاد « كريسانس » ، وكانت فى التاسعة والثلاثين من عمرها ، ابنة غير شرعية ، ولدت فى قرية صغيرة بوادى « زيللر » .. وفى خانة « العلامات المميزة » من بطاقة العمل الخاصة بها ، خط أفقى ينم عن خلوها من علامات كهذه . ومع ذلك ، فلو أن الموظفين عنوا بأن يسجلوا علامة مميزة ، لكفتهم لمحة بصر – ولو سريعة – كى يلاحظوا أنهـا كانت تحمل كافة سمات حصان الجبل الأعجف المعروق .. إذ لم يكن أحد ليخطىء ما يبدو عليها من مميزات فصيلة الخيل : فى شفتها المدلاة فى صفحة وجهها المستطيل الجامد الذى دبغته الشمس . وفى عينيها الكثيبتين المجردتين من الأهداب ، ثم بنوع خاص فى شعرها الكثيف الملبد الملتصق بجبهتها فى خصل لزجة . بل إن مشيتها أيضاً كانت تنطق بذلك التردد الحذر والعناد العصبى الذى تتميز به بغال الجبل .. تلك البغال التى تسلك الطرق الجبلية المحصبة ، عبر ممرات الألب ، تحمل الخشب صيفاً وشتاء ، وتسير فى كآبة ، صاعدة وهابطة بنفس الخطوة المترنحة ..

وما أن تلقى كريسانس عنها « بردعة » العمل ، حتى تراها ، وقد ثنت ذراعيها ، وأوشكت يداها أن تتلاقيا ، وهى تنظر أمامها فى شرود يشبه البله ، وكأنهـا حيوان فى حظيرة !.. فلقـد كان كل شىء فيها جامداً ، دميماً ، ثقيلا .. وكان من الشاق عليهـا

أن تفكر ، إذ كان فهمها بطيئاً ، تتسرب كل فكرة جديدة من أعماق نفسها فى صمت ، وكأنها تقطر خلال مصفاة دقيقة .. فإذا قدر لها أن تدرك – فى صعوبة بالغة – فكرة جديدة ، وتتمثلها ، تمسكت بها فى عناد ، لا تتخلى عنها أبداً !

ولم تكن تقرأ شيئاً : لا صحفاً ، ولا كتب صلوات .. بل كانت الكتابة لديها عملا شاقاً ، وكان خطها المشوه فى دفتر المطبخ يشبه إلى حد بعيد جسمها الكثير الزوايا ، السيىء التكوين ، الذى حرم حرماناً واضحاً من كل صفات الأنوثة ! وكان ردفاها ، ويداها ، وجمجمتها ، وصوتها ، جامدة كلها كعظامها .. ومع أن لغة « التيرول » تمتاز بلهجة تنبعث من الحلق فى نبرات مليئة ، إلا أن هذه اللهجة كانت تصدر عن « كريسانس » فى صرير كأنه صرير الباب الصدىء ! ولم يكن ثمة عجب فى أن يصدأ صوتها ، فإنها لم تكن توجه إلى أحد كلمة ، ما لم تدع إليها ضرورة .. كما لم يرها أحد قط تضحك !.. فكان هذا كله يزيدها شبهاً بالحيوان ، لأنه إذا كان هناك شىء أدعى للأسى من فقدان النطق ، فهو بلا ريب فقدان الضحك .. ذلك الانفجار الذاتى للعاطفة ، الذى حرمت منه مخلوقات الله « غير الواعية » !

وكانت البلدية قد كفلت كريسانس وأنفقت على تربيتها ، حتى إذا بلغت الثانية عشرة من عمرها أخذت تعمل كخادمة ، ثم غسالة للأوانى فى مطعم حقير . فلفت إليها النظر تكالبها على

العمل فى نشاط محموم .. ولم تلبث أن التحقت طباخة بفندق
للسياح ، بعد خروجها من ذلك المطعم الذى كان وقفاً على الحوذيين .
وفى هذا الفندق كانت « كريسانس » تستيقظ فى الساعة الخامسة
من كل صباح ، لتكنس وتنظف ، وتجلو وتدعك بالفرشاة ،
وتنظم وتسخن ، وتطبخ وتعجن ، وتغسل وتشطف ، وتنشر ،
وتكدح حتى ساعة متأخرة من الليل .. لم تأخذ قط إجازة ،
ولا خرجت إلا لتذهب إلى السوق أو إلى الكنيسة . وكان قرص
فرنها الملتهب يحل بالنسبة إليها محل الشمس ، كما كانت آلاف قطع
الخشب التى تشقها طوال السنة ، هى غابتها !

ولم يكن الرجال يضايقونها فى شىء .. إما لأن ربع القرن
الذى سلخته فى عمل متكالب ، جردها من كل ما كان يحتمل أن
يكون فيها من أنوثة ، وإما لأن جفوتها وصمتها المطبق كانا يقطعان
السبيل على كل محاولة للتقرب منها .. فكانت تجد لذتها الوحيدة
فى تلك النقود التى كانت تجمعها — مدفوعة بالفطرة النهمة التى
يجبل عليها الفلاحون والبسطاء — لكيلا تضطر فى شيخوختها إلى
أن تعود فتقتات من خبز البلدية المر فى ملجأ للفقراء !

.. وقد كان حب المال دون غيره هو الذى دفع هذه المخلوقة
« المغلقة » إلى أن تترك لأول مرة ، وهى فى السابعة والثلاثين ،
موطنها فى التيرول : فقد رأتها — أثناء إجازتها فى الريف —
امرأة ممن يقدمن الخادمات إلى المنازل ، وكانت وقتئذ تتكالب

على العمل من الصباح إلى المساء ، فاجتذبتها إلى فيينا ، بأن وعدتها
بضعف أجرها !.. ولم تشغل « كريسانس » أثناء السفر بغير
الأكل ، فلم تتحدث إلى أحد ، وأصرت على أن تحمل فوق
ركبتيها المضنيتين سلتها الثقيلة التى ضمت كل ما كانت تملك
— رغم تلطف زملائها فى السفر حين عرضوا عليها وضع السلة
فوق الشبكة ! — وما ذلك إلا لأن السرقة والنصب كانا كل
ما انطبع فى مخها المغلق عن المدينة الكبيرة !

— ٢ —

● وخلال الأيام الأولى فى فيينا ، لم يكن بد من أن يرافقها
أحد إلى السوق — إذ كانت تخشى العربات ، كما تخشى البقرة
السيارات ! — ولكنها لم تكد تعرف الشوارع الأربعة التى تؤدى
إلى السوق حتى أصبحت فى غنى عن كل إنسان : فكانت تمضى
من المنزل إلى معارض الباعة ، ثم تعود منها وسلتها معلقة بذراعها ..
وكانت تكنس وتوقد النار فى مطبخها الجديد على نحو ما كانت
تفعل فى مطبخها القديم ، دون أى تغيير ، فإذا حانت الساعة
التاسعة — ساعة النوم فى القرية — ذهبت إلى فراشها ونامت
كالدابة ، مفتوحة الفم ، إلى أن ينتزعها الصباح بغتة من النوم !

ولم يقدر لأحد أن يعلم ما إذا كانت راضية عن حالها أم غير
راضية ، بل لعلها — هى نفسها — لم تكن تعرف ذلك .. فما كانت
تبوح لأحد بشىء ، ولا كانت ترد على الأوامر التى تتلقاها

إلا « بنعم » مكبوتة ، أو بهزة كتف عنيدة إذا لم يعجبها الأمر !.. ولم تكن تلقى بالا إلى جيرانها ، ولا إلى خدم المنزل الآخرين .. ولم تحرك نظرات زميلاتها المرحة ، المنبعثة عن روح مخالفة ، ساكناً لديها .. حتى كان يوم ، أخذت فيه إحدى الخادمات تقلد لهجتها التيرولية ، وتسرف فى السخرية منها ، فاستلت فجأة من فرنها جذوة من النار ، وانقضت على البنت المذعورة .. التى هربت صارخة !.. ومنذ ذلك اليوم أخذ الجميع يجتنبون هذه المخلوقة الشرسة ، ولم يعد أحد يجسر على السخرية منها !

ومع ذلك ، فى يوم الأحد من كل أسبوع ، كانت « كريسانس » ترتدى ثوبها الفضفاض ذا الثنايا ، وقبعتها المنبسطة كالطبق — الشبيهة بقبعات الفلاحات — لتذهب إلى الكنيسة . وجازفت ذات مرة — بمناسبة أول إجازة لها فى فيينا — فخرجت « للنزهة » !.. لكنها كانت تأبى ركوب الترام ، ولما لم تر طوال سيرها الحذر خلال الشوارع المزدحمة الصاخبة سوى سلسلة من أحجار الجدران ، فإنها لم تذهب إلى أبعد من قناة الدانوب .. وهناك أخذت تحدق فى الماء الجارى ، كما يحدق المرء فى شىء معروف ، ثم عادت من نفس الطريق ، محاذية المنازل دائماً ، ومتجنبة وسط الشارع .. خوفاً من العربات ! ولا شك فى أن هذه الرحلة « الاستكشافية » الوحيدة خيبت أملها ، إذ أنها لم تغادر

بعدها المنزل قط ، مفضلة أن تجلس يوم الأحد بجوار النافذة ، خالية اليدين ، أو ممسكة بشىء تخيطه .

وهكذا لم تحدث المدينة الكبيرة أى تغيير فى نظام حياتها الرتيبة ، فيما عدا شيئاً واحداً ، هو أن يديها اللتين براهما الطبخ والغسل أصبحتا تتلقفان فى نهاية كل شهر أربع أوراق مالية زرقاء بدلا من اثنتين ! وكانت فى كل مرة تفحص هذه الأوراق النقدية طويلا ، ثم تطويها فى دقة ، وتسويها فى حنو ، قبل أن ترتبها إلى جوار سابقاتها داخل صندوق الخشب المحفور الذى حملته معها من القرية . وكانت هذه « الخزانة » الخشنة القبيحة هى كل « سرها » وسبب حياتها الوحيد ! فكانت تضع — فى المساء — مفتاحها تحت وسادتها .. أما فى النهار فلم يتح لأحد فى المنزل أن يعرف أين كانت تودعه .

• • •

● هكذا كانت تلك المخلوقة البشرية العجيبة — إذا صح هذا التعبير — فإن الطابع « البشرى » لم يكن يلوح على تصرفاتها إلا على نحو بدائى غير واضح المعالم . على أنه ربما كان من الضرورى لكريسانس أن تكون منطوية ومغلقة إلى هذا الحد ، لكى تظل فى خدمة تلك الأسرة العجيبة — أسرة البارون « ف . س » — التى لم يكن الخدم يحتملون جو الشحناء الذى كان يسود الدار التى تقطنها ، إلا أقل فترة ممكنة ، بعد دخولهم فى الخدمة .. فقد كان

الصراخ الصاخب الشبيه بالصرع ، ينبعث بصفة شبه دائمة من سيدة المنزل !.. كانت ابنة ثرى من رجال الصناعة فى مدينـــة « اسن » ، ولم تكن فى مستهل الشباب عندما تعرفت فى إحـــدى مدن المياه المعدنية بالبارون ، الذى كان يصغرها فى السن كثيراً. ورغم أنه لم يكن دونها مرتبة فى النبل ، إلا أنه كان فى حال مالية أكثر تواضعاً . ومع ذلك خفت إلى الزواج من هـذا المتحـذلق الجميل ذى السحر الأرستقراطى !

.. غير أنه لم يكد شهر العسل ينقضى ، حتى أخذت العروس تتبين أن أهلها لم يكونوا على خطأ عندما عارضوا تسرعها فى الزواج وتمسكوا بضرورة توفر صفات أكثر صلابة فى الزواج .. فقـد ظهر عندئذ أن البارون الشاب لم يخف فقط عدة ديون كان مثقلا بها ، بل إنه كان أيضاً يحفل « بمغامرات الشباب » أكثر مما يحفل بواجبات الزوجية ! ومع أنه لم يكن يعوزه اللطف ، بل كان يملك أيضاً تلك الروح المرحة ، الملازمة للطبائع الخفيفة ، إلا أنه لم يكن يتصور الحياة إلا على ذلك النحو الكسول الخالى من الشعور بالمسئولية .. فكان يستهين بكل مسألة مالية ، وكأنها أمر لا يستحق أن يوليه اهتماماً ، وكان يحب الحياة السهلة .. فى حين كانت زوجته على العكس منه ، تريد بيتاً منظماً ، ذا تقاليد ، على نحو ما اعتادت أن تكون عليه الحياة لدى ثراة الطبقة الوسطى — « البورجوازية » — فى إقليم « الرين » .. فكان هذا يخرج البارون عن أطواره !..

حتى إذا رأى نفسه مضطراً — برغم ثراء زوجته — إلى أن يدخل معها فى مناقشات كلما شاء مبلغاً كبيراً من المـال ، ولاحظ أنها تمـادت إلى حد معارضة أعز رغباته — وهى الحصول على اسطبل لخيل السـباق — لم يجـد داعياً لأن يقيم وزناً لهـذه الزوجة البـدينة العريضة الكتفين ، المنحدرة من أقاليم الشمال ، والتى كان صوتها القوى الآمر يؤذى أذنيه !.. وهكذا انتهى إلى وضعها على الرف ، فى رفق وبغير ضجيج — وإن حرص على أن يكون إهمـاله إياها إهمالا تاماً ، كاملا ! — وحين كانت توجه إليه اللوم ، كان يصغى إليهـا فى أدب واهتمام ظـاهرين .. ثم يبـادر بمجرد انتهـاء « الموشح » ، إلى طرد مواعظها الحارة مع دخان سيجارته .. ويمضى فى غير تحرج ، يفعل ما يحلو له !

وكان هذا التأدب السهل ، شبه المحترف ، أكثر إغاظة للزوجة الخائبة الأمل ، من أى اعتراض .. فقد وجدت نفسها عاجـــزة تمـاماً ، مسلوبة الحول ، إزاء تأدب هذا « الأرستقراطى » الخبيث الناعم ، الذى لم يكن يتزلق قط إلى أية فظاظة ! .. لذلك لم يلبث غضبها المكبوت أن أخذ ينطلق فى مجال آخر ، فكان ينفجر ضد الخدم ، ويصب ثورته على الأبرياء! ولم تلبث النتيجة أن ظهرت : فنى خلال سنتين اضطرت إلى أن تغير خادمتها ست عشرة مرة ! بل وحـدث يوماً أنهـا اعتـدت باليد على إحـداهن ، واضطرت — تفادياً للضجة — إلى أن تدفع لهـا مبلغاً كبيراً كتعويض !

وسط هذا الجو العاصف ، استطاعت « كريسانس » وحدها أن تصمد ، كحصان « الحنطور » تحت المطر . ولم تكن تنحاز إلى صف أحد ، أو تعنى بالتغيرات التى تطرأ .. بل يلوح أنها لم تكن تلاحظ أن أولئك المجهولات اللائى يعملن معها ويقاسمنها حجرتها ، كانت تتغير باستمرار أسماؤهن ، وألوان شعرهن ، ورائحة أجسامهن ، وطبائعهن ... إلخ .. فإنها لم تكن تتحدث إلى أى منهن ، أو تعنى بالأبواب التى تصطك ، أو الوجبات التى لا تتم .. ولا بالأزمات العصبية ، أو الإغماءات .. كانت تذهب من المطبخ إلى السوق ، ومن السوق إلى المطبخ ، فى نشاط وعدم مبالاة .. فما كانت لتعنى بما يجاوز أفقها المغلق .. وإنما كانت تعمل كالمدق الآلى ، محطمة الأيام بعضها فى أثر بعض ، حتى مرت بها سنتان من عمر المدينة الكبيرة ، لم يزد عليها خلالها سوى أن الأوراق الزرقاء المكدسة فى صندوقها قد وصلت الآن إلى سمك الإبهام .. وإنها عندما كانت تعدها واحدة بعد الأخرى بإصبعها المبللة ، كانت تصل فى النهاية إلى الرقم السحرى : ألف !

– ٣ –

● ولكن الصدفة تمتلك آلات ثاقبة ، والقضاء الواسع الدهاء يعرف ، كيف يشق – على غير انتظار – طريقاً إلى النفوس ، وكيف يثير الاضطراب فى أكثر الطبائع تحجراً . وعند « كريساس » أخذ السبب الخارجى للأحداث مظهراً مبتذلا مثلها .. كان قد

مضى على آخر تعداد عشر سنوات ، ورأت الحكومة أن تقوم بتعداد جديد للسكان ، فأرسلت نماذج بأسئلة معقدة إلى كافة المنازل ، كى تعرف بالضبط أسماء وتواريخ وأماكن ميلاد السكان . ولما كان البارون لا يثق بدراية خدمه ولا إدراكهم ، فقد فضل أن يملأ النماذج بنفسه ، ولهذا استدعى « كريسانس » إلى مكتبه كما استدعى الآخرين . وعند مناقشتها فى أصلها ومنبتها تبين البارون ، وهو الشديد الشغف بالصيد ، أنه قام عدة مرات بصيد الوعل فى الإقليم الذى وفدت منه ، بل إن دليلا من أبناء قريتها اصطحبه لمدة أسبوعين . وشاءت المصادفة الغريبة أن يكون هذا الدليل هو خال « كريسانس » ، كما شاءت أن يكون البارون فى ذلك اليوم بالذات مرح المزاج ، فأطال الحديث مع خادمته .. وإذا هو يقف على اكتشاف مفاجئ آخر : أنه كان قد تذوق شواء « تيس » جبلى فى نفس الفندق الذى كانت تعمل فيه « كريسانس » طاهية . وكل هذه كانت بلا ريب تفاهات ، ولكنها مع ذلك مصادفات غريبة ، بدت لعينى الفتاة المسكينة أموراً خارقة .. فراحت تتثنى فى غير رشاقة وهى تقف أمام البارون محمرة الوجه ، منبسطة الأسارير ، وقد أرضى الحديث زهوها . وتمادى البارون فمازحها ، أخذ يقلد لهجتها التيرولية ، ويسوق إليها بعض النكات المضحكة .. حتى إذا استخفه الطرب فى النهاية ضرب براحته على ردفها – على طريقة أهل الريف – وقال

ضاحكاً : « والآن .. اذهبى يا شاطرة !.. ولكن ، خذى قبل انصرافك هذين الكورونين ، لأنك من وادى زيللر .. » .

• • •

• ولم يكن الحادث ذا قيمة فى حد ذاته ، ولكن الحـديث الذى استغرق خمس دقائق ، كان كالحجر الذى يلقى فى بركة ماء، إذ حرك أعماق الروح الجامدة فى جوف تلك المخلوقة الكئيبة .. ولم يكن ذلك لأنها لاذت بالصمت فلم تتبسط فى حديث مع أحد منذ سنين ، فحسب ، بل لأن المصادفة شاءت أيضاً أن يكون الرجل الذى أظهر ميلا لحديث معها بعد هذا الجمود الطويل ، من رواد جبالها ، وأن يكون قد أكل شريحة من تيس أعدتها هى بنفسها !.. وهى أمور لاحت لها من قبيل المعجزات .. فضلا عن ضربته تلك على ردفها فى غير تحرج ، وهى فى عرف الفلاحين دعوة صامتة ، وطعم يبذل للمرأة ! وإذا كانت « كريسانس » لم تجرؤ على أن تعتقد أن السيد الرشيق الرفيع المقام قد اشتهاها حقاً ، إلا أن هذه الألفة حركت مع ذلك حواسها الهامدة !

وتحت تأثير هـذه الدفعة المفاجئة ، تحركت الطبقات العميقة فى قرارة كيانها ، واحدة بعد الأخرى .. حتى برز منها إحساس جديد ، كان فى أول أمره مبهماً ، ثم أخذ يتضح .. فإذا هو شبيه بذلك الإحساس الذى يقود الكلب عندما يكتشف فجأة ذات يوم

بين جمهور من الناس ، السيد الذى يرتضيه .. فيروح منـذ تلك اللحظة يتبعه ، ويستقبله بالنباح أو بهز الذنب ، ويطيعه راضياً ، ويصاحبه طائعاً فى كل مكان !.. وكان ذلك حال « كريسانس » . كانت حياتها « المغلقة » لا تتسع لغير خمسة أو ستة أشياء : النقود والسوق ، والفرن ، والكنيسة ، والفراش .. فإذا بعنصر جـديد يدخلها منذ ذلك اليوم ، فيزيح جانباً كل ما كان قد سبقه !.. وبتكالب الفلاح الذى لا يمكن أن يتخلى عما استحوذت عليه يداه الجامدتان ، امتصت « كريسانس » هذا العنصر ، حتى وصلت به إلى عالم غرائزها المضطرب .. وفى الحق أن فترة من الزمن قد مرت قبل أن يصبح هذا التحول محسوساً . بل إن مظاهره الأولى كانت بالغة التفاهة ، فقد صـارت تعنى مثلا بتنظيف ملابس سيدها وأحذيته فى تحمس بالغ ، بينما ظلت تترك للخـادم الأخرى كل ما يتعلق بالبـارونة ! وأخـذت تظهر فى الردهـة والحجرات أكثر مما كانت تفعل فى المـاضى .. وما أن تسـمع صرير قفل المدخل ، حتى صارت تسرع إلى لقاء سيدها ، لتأخذ عنه عصاه ومعطفه . وباتت تعنى بالمطبخ بنوع خاص ، بل إنها حرصت على أن تعرف الطريق إلى السوق الرئيسية خصيصاً كى تشترى شريحة من التيس البرى لإرضاء السيد !.. فضلا عما جعلت تسبغه على مظهرها من عناية خاصة ..

– ٤ –

● وكان لابد من مرور أسبوع أو أسبوعين ، كيما تظهر أولى براعم هذا الإحساس الجديد ، منبثقة من عالمها الداخلى . بيد أن أسابيع أخرى مرت قبل أن يتفتح فوق هذه البراعم إحساس ثان ، وقبل أن يصبح هـذا الإحسـاس حقيقة واقعة . ولم يكن هـذا الإحساس الثانى غير تكملة للأول .. كان بغضاً – كامناً فى أول الأمر ، ثم ظاهراً واضحاً شيئاً فشيئاً – لزوجة البارون ، المرأة التى أتيح لهـا أن تحادثه ، وتساكنه ، وتنام معه ، مع أنها لم تكن تحمل له مثل هذا الحب المتفانى الذى اختصته هى – كريسانس – به ! ولمـا كانت قد أصبحت – دون تعمد أو قصد – أكثر انتباهاً لمـا حولهـا ، فقد شاهدت أحد تلك المواقف المحرجة التى كانت الزوجة السليطة تذل فيها كبرياء السيد المعبود ، على نحو أشد ما يكون إثارة للنفس .. فهل زادتها ألفة الزوج المرحة ، إحساساً بالتحفظ المتعالى الذى كانت تلك السيدة الألمـانية القادمة من الشمال تتميز به ؟.. مهمـا يكن الأمـر ، فإن « كريسانس » شرعت تبدى نحو السيدة – التى كانت تجهل كل شىء – ألواناً من العناد والعداء ، ظهرت فى مئات من صغائر الأمور : من ذلك أن البارونة كانت تضطر لأن تدق الجرس أكثر من مرة ، قبل أن « تتفضل » كريسانس بالرد عليها ، فى تثاقل متعمد وسوء طوية !.. وكانت عندما تتقدم نحوها ، تدخل رأسها بين كتفيها

كأنمـا هى تتـأهب لتجـابه أية ملاحظـة . وكانت تنصت دائماً – بسحنة عابسة – للأوامر التى تصـدر إليهـا ، دون أن ترد . فلا تدرى البارونة هل فهمت عنها أم لم تفهم ! فإذا أعادت عليها أمراً ، من باب الاحتياط ، نفضت كريسانس رأسها فى امتعاض ، أو قالت فى ترفع : « لقد سمعت ! » .. وقد يحدث عند موعـد الذهاب إلى المسرح – وفى اللحظة التى تشتد فيها عصبية سيدتهـا وهى تذرع الحجرات – أن يختفى مفتاح ، فلا يعثر عليه إلا بعـد نصف ساعة وفى مكان لا يخطر لأحد ببال ! .. وباطراد ، أخذت كريسانس تغفل أن تبلغ البارونة المكالمات التليفونية الخاصة بها . فإذا سألتها السيدة تفسيراً لذلك ، قالت فى جفاء وكأنها تقذف بالكلمات فى وجهها : «لقد نسيت!» .. وكانت تحرص على ألا ترفع بصرها قط إلى عينى السيدة ، خوفاً – بلا ريب – من ألا تستطيع إخفاء بغضها لهـا !

• • •

● وباتت المشـاحنات العـائلية ، فى تلك الأثنـاء ، تسبب بين الزوجين مشاهد متزايدة المرارة ! ولعـل ما كان يصـدر عن « كريسانس » – دون وعى منهـا – من سوء خلق ، قد ساعد على هياج أعصاب الزوجة .. إذ راحت تزداد انفعالا من أسبوع لآخر وتفقد اتزانهـا شيئاً فشيئاً من فرط اضطراب أعصابهـا – بسبب الحرمان الجنسى الطويل ، وما كانت تلقاه من إهمال الزوج ،

وقحة الخدم وعدائهم ! — ولم تجد العقاقير والمسكنات نفعاً فى تهدئتها ، إذ كانت النوبات الهستيرية تتلو نوبات البكاء ، دون أن تفلح أية محاولة لتخفيفها .. حتى انتهى الأمر بالطبيب إلى أن نصح لها بالإقامة لمدة شهرين فى أحد المصحات .. وهى نصيحة وافق عليها الزوج — الذى كان عادة لا يبالى — فى حماسة دعت الزوجة ، السيئة الظن ، إلى أن تجنح إلى العصيان !.. ولكن السفر تقرر فى النهاية ، على أن تصحب الخادم الأخرى سيدتها ، بينما تبقى « كريسانس » بالمنزل الرحب فى خدمة السيد . وما إن علمت هذه أن سيناط بها وحدها مهمة العناية بالسيد ، حتى انتفضت حواسها الهامدة .. وغدت كزجاجة سحرية هزت هزاً عنيفاً .. فقد انبعث من أعماق كيانها راسب خفى من الشهوة ، أضفى على حركاتها مظهراً جديداً كل الجدة ، فاختفى ما كان فيها من ثقل وتكلف ، وانحلت عقد أطرافها المتحجرة ، وأصبحت مشيتها حية خفيفة .. وما أن شرعوا فى إعداد العدة للسفر ، حتى أخذت تعدو من حجرة إلى حجرة ، وتصعد السلالم وتهبط ، وترتب الحقائب قبل أن تؤمر بذلك ، وتحملها بنفسها إلى العربة !.. وعندما عاد البارون من المحطة فى المساء ، وقدم إلى الخادم الخفية عصاه ومعطفه ، وهو يقول متنفساً الصعداء : « ها هى قد ذهبت ! » .. حدث شىء عجيب : فقد تقلصت فى عنف مفاجئ ، شفتا كريسانس المطبقتان ، اللتان لم تضحكا

قط ، وكشر الفم ثم اتسع .. ومن ذلك الوجه الذى أضاء فى بله ، انبعثت ضحكة ، بلغت من الصراحة — بل من الوقاحة والحيوانية — حداً جعل البارون يبهت فى اشمئزاز ، وقد انتابه خجل مفاجئ من تبسطه فى رفع الكلفة مع الخادم إلى الحد الذى أغراها بهذا الإسفاف !.. ثم دلف إلى حجرته دون أن ينبس ببنت شفة !

● على أن هذه العارضة من الاشمئزاز لم تلبث أن تبددت . وفى الأيام التالية أخذ الصمت الممتع ، والحرية المريحة التى تمتع بها فى صباه ، يخلقان نوعاً من الصلة بين السيد والخادمة .. حتى ليمكن القول بأن سفر الزوجة قد أفسح له مجالا للتنفس ، وللخلاص من ذلك الالتزام الأبدى الذى كان يقتضيه أن يقدم حساباً عن كل تصرفاته .. فعاد إلى بيته — منذ الليلة الأولى — فى ساعة جد متأخرة ، ليستمتع بالمقارنة بين الحفاوة الصامتة التى تلقته بها « كريسانس » ، وبين تلك الروح العدائية التى كانت تتلقاه بها زوجته !.. وغالت الخادمة فى الانغماس فى عملها اليومى إلى حد الهوس : صارت تستيقظ أكثر بكوراً من ذى قبل ، وتجلو المقابض وقطع النحاس كالمحمومة ، وتؤلف قوائم الطعام بعناية زائدة ، واختيار مرهف .. وفى غداة سفر البارونة ، فوجئ البارون عند الإفطار بأن « الطقم » الذى لم يكن يخرج عادة من صوان الفضية إلا فى المناسبات الكبيرة ، قد أخرج من أجله وحده! وبالرغم من أنه — بطبعه — كان شارد البال ، إلا أنه كان

من المستحيل ألا يلاحظ تلك العناية اليقظة ، الشبيهة بالحنان ، التى كانت تبديها تلك المخلوقة العجيبة نحوه ! ولما كان هو — فى قرارة نفسه — رجلا طيب القلب ، فإنه لم يضن عليها بعبـارات الإطراء .. فكان يمتدح طهيها ، ويوجه إليها — من وقت إلى آخر — بعض العبارات الطيبة . وعندما رأى على المائدة فى عيد ميلاده فطيرة فخمة ، نقشت عليها بالسكر الحروف الأولى من اسمه ، وشعار نبالته ، قال لكريسانس وهو يضحك بلا احتفال : « إنك ستدللينى يا (ستزى) ! إلام يصير أمرى عندما تعود زوجتى .. لا قدر الله ؟ » .

.. ولم يكن هذا التبذل الخالى من الذوق — والذى قد يدهش له الناس فى بلد آخر — شيئاً غريباً عند أرستقراطية النمسا القديمة ، إذ كان ينبعث عن استهتار أولئك النبـلاء ، فى كل مناسبة ، وعن ذلك الاحتقار البالغ الذى كانوا يظهرونه نحو عـامة الشعب ! .. وكما كان « الأرشيدوقات » المعسكرون فى قرية نائية فى « غاليسيا » يكلفون أحد صف الضباط بأن يقتاد إليهم عاهرة من ماخور ، ثم يتركونها له بعد ذلك نصف عارية ، ويسخرون أعمق السخرية بكل ما يمكن أن يقوله أبناء المنطقة فى اليوم التالى .. كذلك كانت الأرستقراطية العليا تفضل أن تصطحب فى الصيد حوذياً أو سائساً بدلا من أن تصطحب أستاذاً أو تاجراً كبيراً . ولكن هـذا التبذل الديمقراطى فى الظاهر ، والذى كانوا يتنزلون إليه ثم يترفعون عنه

كان يختلف فى حقيقته عنـه فى مظهره تمـام الاختـلاف .. فهو لم يكن قط إلا من جانب واحد ، كما كان ينتهى فى اللحظة التى يغادر فيها السيد المائدة ! .. وكان صغار النبلاء يحاولون دائماً أن يحاكوا تصرفات الإقطاعيين ، ولذلك لم يجد البارون أى حرج لضميره فى أن يتحدث باحتقار عن زوجته ، أمام فلاحة تيرولية جلفاء ! .. ومع أنه كان مطمئناً إلى أنه لم يسرف فى الحديث ، إلا أنه لم يستطع أن يتصور مدى الغبطة الجشعة واللذة الجـامحة اللتين كانت تتذوق بهما تلك الخادمة الكظوم ، عبارات الاحتقار التى يفوه بها أمامها !

— ٥ —

● ومع ذلك فقـد ألزم نفسه لمدة يوم أو يومين آخرين شيئاً من التحفظ ، قبل أن يلقى الزمام ! .. فلما تضافرت عدة دلائل على ترسيخ اعتقاده فى « صمت » الخادمة ، أخذ يسلك مسلك الأعزب الحقيق .. فاستدعى « كريسانس » ذات يوم ، وأمرها فى صوت طبيعى — ودون ما إيضاح — بأن تعد فى المساء عشاء لشخصين ، وأن تذهب بعد ذلك لتنام ، على أن يتولى هو بنفسه بقيـة الأمر . وتلقت « كريسانس » الأمر دون أن تنطق بحرف . ولم يلمح ، سواء من نظرتهـا أو من أقل اضطراب فى أهدابهـا ، أن معنى كلماته قد نفذ خلف جبهتها المنخفضة .. لكن السيد لم يلبث أن تبين — فى طرافة مشوبة بالدهشة — إلى أى حد أدركت مقاصده

الحقيقية !.. فعندما عاد بعد انصرافه من المسرح فى المســاء ، مصطحباً حسناء شابة من تلميذات الأوبرا ، لم يجد المائدة محلاة بالزهور ومرتبة فى ذوق فحسب ، بل وجد الفراش المجاور لفراشه فى غرفة نومه مرتباً على نحـو مثير .. بينما كان قميص امـرأته الحريرى ، وخفها ، فى مكان واضح معدين للبس ! ولم يستطع الزوج المتحرر أن يمنع نفسه من الضحك لما أوتيت تلك المخلوقة من تلطف ذهبت فيه حقاً إلى مدى بعيد !.. وسقط — من تلقاء نفسه — آخر حاجز بينهما ، أمام ذلك التآمر الحماسى .. فلما أشرق الصباح ، دق البارون الجرس ليستدعى « كريسانس » كى تساعد الحسناء الدخيلة على ارتداء ملابسها ، وقد اطمأن إلى أن الميثاق الضمنى قد وقع بينهما نهائياً !

ومنذ ذلك الحين صارت « كريسانس » تدعى باسم جديد .. فإن المغنية الطروب التى كانت تتدرب عندئذ على دور « الفيرا »، والتى حلا لها من قبيل المداعبة أن تخلع على صديقها الحانى لقب « دون جوان » ، قالت له ضاحكة : « هل لك أن تستدعى تابعتك (ليبوريللا)؟ » .. فراقت له هذه التسمية ، لأنها كانت تصور — على نحو مضحك — تلك التيرولية الجافة .. ومنذ ذلك اليوم لم يعد يسميها بغير هذا الاسم ! وقد أخذها الذهول من ذلك فى أول الأمر ، ثم لم يلبث أن أغراها حسن جرس ذلك الاسم الذى لم تفهم له معنى . وإن أحست بأن فيه سمواً ورفعة لها !.. وفى

كل مرة كان البارون المرح يدعوها بهذا الاسم ، كانت شفتاها الرفيعتان تنفرجان ، فتكشفان عن أسنانها الصفراء التى تشبه أسنان الحصـان . وفى خشـوع وذلة كانت تقترب لتتلقى الأوامر من السيد المبجل .

° ° °

● وكانت كوكب المستقبل قد أطلقت اسم « ليبوريللا » على كريسانس من باب السخرية ، فلقد وجدت فيه — دون تعمد — اسماً شديد الملاءمة لتلك المخلوقة العجيبة .. فقـد كانت الفتـاة الجافة ، التى تجهل الحب ، أشبه بقواد دون جوان ، تجـد فى مغامرات سيدها لذة فريدة ممزوجة بالكبرياء ! فهل كان مبعث هذه اللذة ، ذلك الرضى الذى كانت تستشعره كل صباح عندما تجد مضجع المرأة التى كانت تبغضها — البارونة — مدنساً بواسطة هذه المرأة أو تلك ؟.. أم أن حواسها كانت تشارك سراً فى اللذة التى تبذرها فى سخاء رجولة سيدها ؟!.. مهما يكن الأمر فإن تلك العانس الصارمة المتعبدة كانت تخدم — فى حماسة ملتهبة — مغامرات البارون . وكانت سنوات العمل الطويلة قد جردت جسمها المنهوك من الحاسة الجنسية ، فلم يعد يضطرب لنوازعها .. وإن لاح أنها كانت تجد لذة حقيقية — كقوادة — فى أن تتابع بنظراتها كل امرأة جديدة تدلف إلى حجرة نوم سيدتها الغائبة !.. وأخـذ هـذا التـآمر — المختلط بأريج جو الغـرام المثير — يعمل

كالحامض فى حواسها الهامدة .. فأصبحت كريسانس «ليبوريللا» بحق ، أى قواداً حقيقياً ! أصبحت حية يقظة ، واسعة الحيلة مثل سميها المذكور . وبفضل ذلك الحافز الحار المنبعث من مشاركتها فى مغامرات سيدها الغرامية ، استيقظ فيها المكر ، وحب الاستطلاع . أرادت أن تعرف ما كانت تنطوى عليه تلك المغامرات .. وفى سبيل ذلك جهدت فى استراق السمع من وراء الأبواب ، وفى اختلاس النظر خلال ثقب المفتاح ، وفى تفحص المخادع والمضاجع ! وانتهى بها هذا النشاط إلى أن تخرج من حالة الجمود التى كانت تلازمها من قبل، إلى نوع من الحياة «البشرية» ! وبلغت دهشة الجيران أقصاها عندما رأوا « كريسانس » تصبح فجأة محبة للاختلاط ، فتتحدث إلى الخادمات الأخريات ، وتمزح مزاحاً ثقيلا مع ساعى البريد ، وتدخل فى مناقشات مع الباعة .. بل حدث ذات مرة أن انطفأت الأنوار فى الفناء ، فسمعت خادمات الجيران طنيناً غريباً ينبعث من نافذة كريسانس ، التى كانت فى العادة صامتة .. وإذا هى تتمتم مغنية — بصوت ناشز ذى صرير — إحدى أغنيات الألب الرتيبة ، التى يرددها فى المساء رعاة البقر فى الجبال .

ومن شفتيها الغفلتين كان اللحن ينبعث فى حشرجة ، مشوهاً، مصدوعاً ، فى نبرة مشروخة .. ولكنها مع ذلك لم تخل من شىء غريب مؤثر : لأول مرة منذ طفولتها حاولت « كريسانس » أن

تغنى ! وكان شيئاً مؤثراً أن تسمع تلك النبرات المتعثرة ، التى أخذت تصعد فى مشقة نحو الضوء ، من ذلك القاع المظلم لأعوامها الدفينة !

-٦-

● وكان البارون أقل الناس إدراكاً لهذا التحول الخارق ، مع أنه كان هو السبب غير الإرادى له .. وذلك لأن أحداً لا يلتفت إلى الخلف ليرى ظل شخصه . إننا نحس بالظل يتبعنا وفياً صامتاً ، أو يسبقنا أحياناً ، كالرغبة التى لم نفطن إليها بعد .. لكننا قلما نقف عند هذا الظل ، أو نتعرف على أنفسنا فى هذا « الكاريكاتير » !.. كل ما أدركه البارون هو أن « كريسانس » كانت دائماً على استعداد لأن تخدمه ، وأن عدم فضولها كان تاماً، وأنه كان يستطيع أن يعتمد عليها إلى حد التضحية . وكان صمتها، وحدود الكلفة التى كانت تعرف كيف تحافظ عليها فى كافة الظروف الدقيقة ، هما الصفتان اللتان كان يقدرهما فيها بنوع خاص . وفى بعض الأحيان كان يوجه إليها بعض العبارات اللطيفة كما يلاطف الإنسان كلبه ! وكان يداعبها .. فيقرص طرف أذنها، أو يعطيها ورقة بنكنوت ، أو تذكرة مسرح ، يستلها فى غير مبالاة من جيب صداره .. وكانت تلك الأمور بالنسبة له أشياء تافهة .. أما بالنسبة لها ، فقد أصبحت « مقدسات » ، احتفظت بها فى روع داخل صندوقها !

وبتراخى الزمن اعتاد البارون أن يفكر بصوت عال أمامها ، بل وأن يكلفها ببعض المهام المعقدة . وكلما أظهر لها مزيداً من الثقة ، ضاعفت من جهدها كى ترتفع إلى مستوى حسن ظنه . وشيئاً فشيئاً ، أخذت تظهر عندها غريزة فريدة .. غريزة كلب الصيد الذى يتشمم ويبحث ويحدس رغبات سيده ، حتى لاح أنها ترى معه ، وتنصت معه ! .. كل مسرات البارون وكل مغامراته ، كانت تلتذ بها فى حماسة تشبه الفحشاء ! .. فكانت تتهلل عندما تعبر امرأة جديدة عتبة الدار .. وتلوح حزينة متكدرة عندما يعود فى المساء غير متأبط رفيقة لهوه ! .. وأخذت أفكارها – التى كانت هامدة من قبل – تعمل فى نشاط محموم ، لا عهد لغير يديها به .. بينما أخذت عيناها تشعان بريقاً جديداً ، بريقاً يقظاً . فقد أخذ كأن « بشرى » يستيقظ فى « دابة » العمل القديمة المنهكة .. كائن عنيد ، كتوم ، ماكر ، قلق ، مدرك نشط ، خبيث خطر !

• • •

● وحدث ذات يوم أن عاد البارون إلى المنزل مبكراً عن عادته. ووقف فى الصالة مندهشاً : أليست ضحكة مختنقة تلك التى سمعها منبعثة من المطبخ ؟! .. ولكن ها هى « ليبوريللا » تخرج من الباب المنفرج ، وهى تجفف يديها فى مرولتها ، ثم تقول فى لهجة محرجة ووقحة معاً : « ألا معذرة يا سيدى ! » .. ثم تضيف وقد خفضت

بصرها إلى الأرض : « إن ابنة الحلوانى موجودة هنا .. بنت جميلة .. وهى تود لو تعرفت بسيدى ! » .. ونظر إليها البارون فى دهشة ، لا يدرى أينبغى أن يثور لرفع الكلفة بينها وبينه على هذا النحو الجرىء ، أم أن يلهو بتلطف القوادة . وفى النهاية تغلب فيه فضول الذكر ، فقال : « دعينى أراها ! » .

ومن المطبخ خرجت الفتاة : صبية شقراء مثيرة للشهية ، فى السادسة عشرة من عمرها – وكانت « ليبوريللا » قد راحت تجتذبها إليها شيئاً فشيئاً بأقوالها المعسولة – خرجت متوردة الخدين وعلى شفتيها ابتسامة حائرة ، والخادم تدفعها وتشجعها . ودارت فى ارتباك أمام السيد الرشيق الذى كثيراً ما رمقته من داخل محل الحلوى المواجه ، فى إعجاب يشبه إعجاب الطفولة . ووجدها البارون جميلة ، واقترح أن تتناول معه الشاى فى حجرته . ولما لم تدر ماذا تفعل – إزاء دعوته – أخذ نظرها يتلمس « كريسانس » لكن هذه كانت قد عادت إلى المطبخ فى سرعة واضحة .. فلم يبق أمام الفتاة التى استدرجت إلى هذه المغامرة ، إلا أن تقبل – محمرة الوجه ، منفعلة ، مستطلعة – تلك الدعوة الخطرة !

• • •

● لكن الطبيعة لا تعرف القفز . وإذا كان ذكاء « كريسانس » قد دفعه شعور غامض مختلط إلى نوع من الانطلاق ، فإن هذا الذكاء لم يصل إلى أبعد من غريزة الحيوان الذى ظلت من فصيلته ..

فإن الرغبة التى استغرقتها فى خدمة سيدها المحبوب ، بتفانى العبيد، أنستها سيدتها الغائبة نسياناً مطلقاً .. الأمر الذى أدى إلى زيادة اليقظة هولا ، فأحست « كريسانس » بكارثة غير متوقعة عندما أخبرها البارون ذات صباح ، وفى يده خطاب ، وعلى وجهه علامات الامتعاض ، أن زوجته عائدة فى اليوم التالى ، وأوصاها بأن ترتب كل شىء فى المنزل !.. كان النبأ بمثابة خنجر طعنها ، فامتقع لونها ، وجمدت فى مكانها فاغرة الفم من الفزع ، دون أن تحرك ساكناً ، وهى تنظر أمامها وكأنها لم تفهم !.. واضطربت ملامحها ، إلى حد حمل البارون ، على أن يخفف عنها بعبارة فكهة فقال : « أظن أن هذا لا يسرك أنت أيضاً يا (ستزى) ! ولكن ماذا نصنع ، وليست لنا فى الأمر حيلة ؟ » .

ومع ذلك فقد أخذت تشيع فى وجه « كريسانس » المضطرب لحظتئذ، حركة تشنجية صعدت من الأعماق وراحت تلون صدغيها الشاحبين شيئاً فشيئاً .. إنها شىء أخذ يصعد فى بطء ، مدفوعاً بوجيب عنيف راح صدرها يهتز له ، حتى وصل أخيراً إلى شفتيها .. ومن بين أسنانها المطبقة انبعث صرير يقول : « إن .. هناك شيئاً .... يجب أن يعمل ! » .

انبعث هذا الصرير فى عنف كأنه القذيفة النارية ، ثم تقلص وجهها مكفهراً بالشر بعد هذا التنفيس ، مما حمل البارون على التقهقر على الرغم منه .. لكن « كريسانس » كانت قد استدارت



ومن المطبخ خرجت الفتاة : صبية شقراء مثيرة ..

وأخذت تنظف هاوناً من النحاس فى نشاط محموم ، يخيل للرائى أنها ستكسر فيه أصابعها !

- ٧ -

● وبعودة الزوجة استأنفت العاصفة هبوبها فى المنزل : فالأبواب تصطك فى عنف ، والصراخ يرتفع فى كافة الحجرات ، مكتسحاً ذلك الجو الدافئ المريح الذى ساد فى الأيام السابقة .. ولعل الزوجة البائسة قد أحيطت علماً – بفضل ثرثرة الجيران ، أو بفضل خطابات غفل من الإمضاء تلقتها – بسلوك زوجها المعيب .. أولعل الزوج – الذى لم يخف سخطه لعودتها – قد أساء استقبالها ، مما أثار حفيظتها ! على أية حال ، فقد بدا أن الشهرين اللذين قضتهما فى المصحة لم يأتيا بأية نتيجة لتهدئة أعصابها المتوترة ، فعادت إلى نوبات الدموع والتهديدات ومشاهد الغضب ، وأخذت العلاقات بين الزوجين تزداد سوءاً .. ومع ذلك ، فإن البارون لم يتخل قط ، إزاء حملات التقريع التى كانت زوجته تشنها عليه ، عن ذلك التأدب الذى خبره منذ زمن بعيد ! وعندما كانت تهدده بأن تكتب لذويها وتهجره ، كان يتجنب الرد عليها ، أو يبذل جهده لتهدئتها .. ولكن مثل هذا السلوك لم يكن يؤدى إلا إلى اشتداد انفعال هذه المرأة التى كانت تحس بأن لا سند لها ، وبأنها محوطة بعداوة سرية !

.. أما « كريسانس » فقد عادت إلى التحصن الكلى خلف صمتها

القديم . ولكن هذا الصمت أصبح عدوانياً خطراً ، فقد أصرت فى بادئ الأمر على عدم الخروج من المطبخ عند قدوم سيدتها . وعندما دعتها السيدة بعد أن تبينت أنها لم تخرج من المطبخ لاتهامها ، رفضت أن تحييها ، وظلت جامدة فى موقفها وقد زمت كتفيها إلى الأمام كمن يتأهب للوثوب ، وأخذت ترد على أسئلة البارونة فى نغمة تنضح بالحقد ، حتى نفد صبر السيدة فاستدارت .. وإذا بنظرة بغض تخترق ظهرها كالخنجر ، دون أن تشعر .

والواقع أن « كريسانس » أحست منذ عودة سيدتها بالحرمان .. فبعد أن تذوقت ملذات الخضوع الذى لم يكن يقف عند حد ، والذى كانت تتفانى فيه بكل قلبها وروحها ، إذا بها تنزوى من جديد فى المطبخ ، بل وتحرم من اسمها اللطيف «ليبوريللا» ! فقد أخذ البارون يتجنب فى حذر أن يظهر لكريسانس أى عطف أمام زوجته . ومع ذلك فقد اتفق بعد إحدى المعارك البالغة العنف ، أن أحس بالحاجة إلى الترويح عن نفسه ، فتسلل إلى المطبخ ، حيث جلس على أحد مقاعده وتنهد قائلا : «إننى لم أعد أحتمل ! » .

وكانت اللحظات التى يلتجىء فيها هذا السيد المعبود إلى المطبخ وقد أثقله التوتر الشديد ، أسعد اللحظات عند « ليبوريللا » ، التى لم تسمح لنفسها قط بأن ترد عليه أو توجه إليه كلمة عزاء ... وإنما كانت تظل صامتة منطوية على نفسها ، مكتفية بأن ترفع أحياناً نظرة « إشفاق » نحو معبودها ، الذى كان يجد راحة فى

هذا العطف الصامت ! وما أن يغادر المطبخ ، حتى كانت التقطيبة الثائرة تعود إلى جبهة « كريسانس » ، فتروح تعجن اللحم المستسلم بين يديها الثقيلتين ، فى حركة عصبية ، أو تصب غضبها على القضيات والأوانى التى تنظفها !

فى مثل هذا الجو ، حدث فى النهاية ما لم يكن بد من حدوثه : انفجرت العاصفة ! فخلال أحد المشاهد العنيفة فقد البارون صبره ، وتخلى عن دور الغلام المتواضع الخاضع .. فصاح فى غضب : « كفى ! » .. ثم صفق خلفه باب الصالون فى عنف ، اهتزت له ألواح الزجاج فى كافة الغرف ، وانطلق إلى المطبخ حيث كانت « كريسانس » تهتز كالقوس المشدود ، وقال : « أعدى لى فوراً حقيبتى وبندقيتى . إننى مسافر للصيد لمدة ثمانية أيام . إن الشيطان نفسه لا يستطيع احتمال هذا الجحيم !.. يجب أن أضع له حداً ! » .

ونظرت إليه « كريسانس » مأخوذة بالنشوة : لقد عاد فأصبح السيد !.. وفى نفس الوقت الذى انطلقت فيه من حنجرتها ضحكة خشنة ، قالت : « إن سيدى على حق ! يجب وضع حد لهذه الحال ! » .. وفى حماسة محمومة أخذت تعدو من حجرة إلى أخرى ، لتنتزع فى عنف من داخل الدواليب أو من فوق المناضد ، كل ما هو فى حاجة إليه .. ثم حملت بنفسها الحقيبة والبندقية إلى العربة .. وإذ هم البارون بشكرها ، ارتد إليه بصره مفزوعاً . فقوق شفتى الخادمة المطبقتين ، كانت ترحف تلك الضحكة الخبيثة

التى كانت تروعه فى كل مرة ، إذ تبدو له أشبه بتكشيرة الحيوان الذى يتأهب للانقضاض على فريسته ! ولكنها لم تلبث أن عادت إلى ذلتها .. وفى ألفة جارحة أخذت تتمتم بصوتها الخشن : « فلتطب لسيدى الرحلة .. وليطمئن ! فإنى سوف أفعل كل ما يجب فعله » !

– ٨ –

● وبعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ ، استدعى البارون من الصيد ببرقية !.. وكان ابن عمه ينتظره فى المحطة . فأدرك فوراً أن أمراً غير سار لابد قد حدث .. سيما وقد لاح ابن عمه مرتبكاً مضطرب الأعصاب . وبعد مقدمات قصيرة ، علم البارون أن زوجته قد وجدت فى الصباح فى مخدعها جثة هامدة ، وأن الموت نشأ عن اختناقها بالغاز !.. وأضاف ابن العم أن افتراض القضاء والقدر أمر لا يمكن تصوره ، فنى تلك الفترة من العام – شهر مايو – كان قد مضى زمن طويل على عدم استخدام مدفأة الغاز .. كما أن المسكينة تناولت عشية موتها أقراص « الفيرونال » المنومة ، مما يدل على قصد الانتحار .. وهذا فضلا عن شهادة الطباخة ، التى كانت وحدها بالمنزل فى تلك الليلة ، والتى سمعت سيدتها تمشى أثناء الليل فى دهليز الغرفة ، مما يرجح أنها كانت ذاهبة لفتح صنبور الغاز الذى كان محكم الإغلاق . واعتماداً على هذه الشواهد قرر

الطبيب الشرعى عند استدعائه ، فى محضر حرره ، استبعاد فكرة القضاء والقدر ، مقرراً أن الوفاة كانت بالانتحار !

وأخذ البارون يرتعد .. فبمجرد أن أشار ابن عمه إلى شهادة « كريسانس » ، أحس بيديه تبردان ، واستبدت به فكرة مؤلمة بشعة — كأنها الكابوس — ولكنه كبتها ، وترك نفسه يقاد إلى منزله فاقد الإرادة . وكان جسد الميتة قد وضع فى تابوت ، والأهل ينتظرونه فى الصالون ، عابسين .. وقد بدا شعورهم العدائى ، وتعازيهم الباردة ، كنصال الخناجر !.. ورأوا أنفسهم مضطرين إلى أن يؤكدوا أنه ليست هناك لسوء الحظ وسيلة لإخفاء الفضيحة ، وذلك لأن الخادمة أخذت منذ الصباح تهرول فى السلالم صائحة بصوت حاد : « سيدتى قد انتحرت ! » .. ولذلك أوصوا بأن تكون الجنازة بالغة البساطة ، فإن الشائعات أثارت فضول الجمهور .. وكان فى كل هذا الحديث ما وجه النصل الحاد من جديد نحو البارون ، الذى انهار وأخذ ينصت فى ذهول ، وبالرغم منه ، رفع فى إحدى اللحظات بصره إلى باب غرفة النوم المغلقة ، ولكنه لم يلبث إن خفضه فى استخذاء .. وحاول أن يسترسل فى تقليب فكرة غامضة أخذت تلح عليه وتعذبه ، لكن هذه الأحاديث الجوفاء الصادرة عن الأهل ، فى بغضاء ظاهرة ، أنزلت به الاضطراب الشديد .. وظل هؤلاء الناس المجللون بالسواد يدورون حوله ويثرثرون ، لنصف ساعة أخرى ، ثم انصرفوا ..

وبقى هو وحيداً فى الغرفة الخالية المعتمة ، يرتعد كمن تلقى صدمة ، وفى جبهته صداع .. وفى مفاصله تكسر !

* * *

● ودق البـاب ، فانتفض قائلا : « ادخل » !.. وأحس خلفه بخطوة مترددة ، خشنة ومتسللة معاً .. خطوة كان يعرفها جيداً ! وأخذه ذعر مفاجئ . وخيل إليه أن عنقه قد تحجر ، كما انتابته رعشة سرت من صدغيه إلى ركبتيه ! وأراد أن يستدير ، لـكن عضلاته أبت عليه ذلك ، فظل واقفاً فى مكانه وسط الغرفة صامتاً مرتجفاً ، وذراعاه متدليتان ، متصلبتان ، وقد خالجه فى وضوح ذلك الإحساس بالجبن الذى يحسه المجرم ! وحاول أن يتحرك ، لكن مجهوداته ذهبت عبثاً ، ولم تستجب له عضلاته .. وما لبث أن سمع من خلفه صوتاً جافاً غير مكترث يقول : « إنما أريد أن أسأل سيدى : هل سيتناول طعامه هنا أو فى المدينة ؟ » ..

وتزايدت رجفة البارون ، وسرت فى قلبه برودة الثلج ، فتلعثم عدة مرات قبل أن يستطيع أن يتمتم بقوله : « إننى لا أريد شيئاً الآن ! » .. وأخذت الخطوة تبتعد متثاقلة ، بينما ظل هو عاجزاً عن أن يستدير . وفجأة انكسر هذا التصلب ، فأحس بهزة تخترق كيانه من رأسه إلى قدميه .. هزة تشنج أو اشمئزاز ! وفى قفزة انطلق نحو الباب ، وأدار المفتاح — وهو يرتعد — كى لا تلاحقه تلك الخطوة اللاعنة البغيضة !.. ثم ألقى بنفسه فى مقعد

وثير ، ليطرد فكرة كان يحاول أن ينحيها فلا تكف عن أن تلح عليه ، باردة لزجة كالأفعى !.. وكانت هذه الفكرة الملحة التى كره أن يفحصها ، هـذه الفكرة اللازجة المنفرة ، قد أخذت تغزو نفسه دون أن يستطيع فكاكاً منها ، فلم تتركه طوال الليل ، ولا فى الساعات التى تلته .. بل ظلت ملازمة له أثناء دفن المتوفاة ، وهو واقف فى صمت إلى جوار التابوت !

• • •

• وفى اليوم التالى للجنازة بادر البارون إلى مغادرة المدينة ، إذ لم يعد يطيق رؤية كل تلك الوجوه التى كان عطفها عليه يحمل نظرة غريبة من التساؤل والتحرى الذى كان يضنيه . بل إن الجمادات ذاتها كانت تتحدث إليه فى خبث ، وكأنها تتهمه !

أما الكابوس المخيف الذى أخذ بخناقه فى النوم والصحو ، فقد تمثل فيما لاحظه من عدم اكتراث شريكة أسراره السابقة ، التى أخذت تسرح فى المنزل الخاوى ، كأنما لم يحدث فيه شىء على الإطلاق ! ومنذ اللحظة التى فاه فيها ابن عمه باسمها فى المحطة ، صار البارون يرتجف لمجرد التفكير فى أنه سيلقاها !.. وصار إذا سمع وقع قدميها ، تملكه انفعال عصبى قلق يدفعه إلى الهرب !.. فهو لم يعد يطيق رؤيتها ، ولا جرجرة خطواتها ، ولا برودها وجمود إحساسها .. وبات ينتابه الاشمئزاز لمجرد التفكير فيها : فى

صرير صوتها ، وفى شعرها اللازج ، وإحساسها الأصم الحيوانى ، الذى لا يعرف الرحمة !

وفى غمرة غضبه نقم على نفسه أن أعوزته القوة كى يحطم هذا الرباط الذى بات يخنقه ، حتى لم يعد يرى غير مخرج واحد منه ، هو الهرب !.. فأعد حقائبه سراً دون أن ينبس ببنت شفة لكريسانس ، مكتفياً بأن يترك لها مذكرة مقتضبة يخبرها فيها بأنه قد ذهب إلى أصدقاء فى « كارنتيه » .

— ٩ —

• وظل البارون متغيباً طوال الصيف ، حتى استدعى إلى « فيينا » كى يسوى حساب الميراث .. ففضل عندئذ أن يعود إلى العاصمة « سراً » ، وأن ينزل فى فندق ، دون أن يخطر ذلك الكائن المشئوم الذى كان ينتظره فى منزله !.. والواقع أن « كريسانس » لم تتلق منه أى خبر طوال غيبته .. وكانت تعود إلى محاميه فيما يختص بالعناية بالمنزل وتغطية المصروفات الجارية . وفيما عدا ذلك كانت تقضى الأيام منتظرة فى المطبخ ، جامدة فوق مقعدها ، كئيبة كالبومة !.. ثم بدأت تذهب إلى الكنيسة مرتين فى الأسبوع بدلا من مرة واحدة . وأخذت عظام وجهها تزداد بروزاً .. وشكلها يشتد قسوة .. وأصبحت حركاتها حركات تمثال آلى !.. وعاشت على هذا المنوال أشهراً طويلة ، فى حالة خمول غامض !

ومع ذلك فقد جـدت فى الخريف أمور عاجلة ، منعت

البارون من أن يطيل غيابه ، واضطرته إلى أن يعود إلى منزله .. فوقف متردداً عند مدخل المنزل ! .. كان الشهران اللذان قضاهما بين أصدقاء حميمين قد أنسياه أشياء كثيرة .. أما الآن ، وقد أوشك أن يجد نفسه وجهاً لوجه أمام ذلك الكابوس — بل أمام تلك الشريكة فى الجرم ! — فقد أخذت تعاوده نفس التقلصات الخانقة ، ونفس الغثيان القديم ! .. فكان كلما صعد درجة من السلم ازداد تباطؤاً ، وكأن يداً خفية تأخذ بخناقه ، وتزداد ضغطاً عليه شيئاً فشيئاً ! واحتاج إلى أن يجمع إرادته كلها كى يحمل أصابعه المتجمدة على أن تدير المفتاح فى قفل الباب الخارجى ، ليدخل ..

.. وما أن فوجئت « كريسانس » بسماع صرير المفتاح حتى قفزت إلى خارج المطبخ ! .. فلما رأت سيدها ، امتقع لونها لحظة ، ثم مالت نحو الحقيبة التى وضعها عند قدميه ، كى تطرق برأسها إلى الأرض .. ولكنها نسيت أن تقدم إليه تحياتها ، كما أنه من ناحيته لم يفتح فمه ! .. وفى صمت حملت الحقيبة إلى الحجرة ، وفى صمت تبعها هو ! .. ثم أخذ ينظر من النافذة منتظراً أن تغادر الغرفة ، فلما فعلت سارع إلى إغلاق الباب بالمفتاح مرتين !

• • •

● وانتظرت « كريسانس » — كما انتظر البارون أيضاً — أن تختفى تلك « القشعريرة » المزعجة التى كان يحس بها عند رؤيتها ! . ولكن عبثاً .. فقد كان الضيق يأخذ بخناقه بمجرد سماع وقع

خطواتها بالردهة ، دون أن يراها ! .. ولم يعد يتناول إفطاره فى البيت ، بل كان يسارع فى كل صباح إلى الهرب — بغير أن يوجه إليها قولا ! — فيظل غائباً حتى ساعة متأخرة من الليـــل ، لا لشىء إلا لتجنب رؤيتها ! .. وعندما كانت الضرورة الحتمية تقتضيه أن يوجه إليها الحديث ، ليصدر إليها أوامره ، كان يفعل ذلك وهو مشيح بوجهه عنها .. بل إن مجرد استنشاقه هواء الحجرة — التى تجمعه وهذا الشبح — كان يخنقه ويكاد يزهق أنفاسه ! .. وفى تلك الأثناء ، كانت كريسانس تقضى سحـــابة يومهـا فوق مقعدها فى صمت مطبق ، فلم تعد تطهو شيئاً لنفسها ، وكانت تنفر من كافة أنواع الطعام ، وتتجنب جميع الناس ! .. كانت قابعة هناك واجفة القلب ، كالكلب الذى يعلم أنه أخطأ ، ولكنه ينتظر صفير سيده يبشره بالصفح ! إنها لم تدرك بعقلها المغلق ما حدث .. ولكن مجرد تجنب سيدها إياها ، وزهده فى خدماتها ، كان يؤثر فيها تأثيراً عميقاً !

وبعد عودة البارون بقليل دق البــاب ، وإذا برجل أشيب الشعر ، حليقه فى عناية ، ينتظر لدى الباب وبيده حقيبة . وأرادت كريسانس أن تعرف من يكون ، فقــال : إنه الخادم الجديد الذى طلب إليه السيد أن يحضر فى الساعة العاشرة . وطلب إليها أن تبلغ سيدها بقدومه .. فامتقع لون « كريسانس » ، وظلت لحظة كالمتجمدة ، مادة يدها فى الهواء ، وقد تصلبت أصابعها

المنفرجة ، ثم سقطت يدها كالعصفور الذى أصابته رصاصة .
وفى صوت مختنق ، قالت للرجل : « تول أنت تبليغه » !
ثم حبست نفسها فى المطبخ بعد أن صكت الباب من خلفها !

• • •

● واستلم الخادم عمله . ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد السيد فى حاجة لأن يوجه إلى « كريسانس » أى حديث . فقد كانت الأوامر الخاصة بها تنقل إليها بوساطة هذا الخادم الكهل الهادئ . ولم تعد تعلم بما يجرى فى المنزل ، فقد صار كل شىء يمر فوقها فى برود ، مرور الموجة فوق الحجر !

واستمرت هذه الحال خمسة عشر يوماً كانت وبالا على « كريسانس » ، فأضحى وجهها مدبباً حاد الزوايا ، وابيض شعرها فجأة عند الصدغين . واستمرت تجلس على مقعدها كأنها كتلة من الخشب ، محدقة بنظرها الخاوى فى فضاء النافذة .. وصارت حركاتها ، حين تشتغل ، تشبه نوبات الصرع !

وفى نهاية الأسبوعين ، أتى الخادم يوماً إلى السيد فى مكتبه . واستنتج البارون من مظهره أن لديه شيئاً هاماً يود أن يفضى به إليه . وكان الخادم قد سبق له أن شكا من غلظة تلك التيرولية القذرة ، واقترح طردها .. ولكن لاح عندئذ أن البارون لا يستمع إليه . فانسحب الخادم منحنياً .. أما فى هذه المرة فقد صمم على فكرته . وفى عبوس ينم عن الحرج ، تمتم راجياً من سيده أن

يسخر منه إذا شاء ، ولكنه .. مضطر .. نعم . لا مفر له من أن يعترف بأنه .. خائف منها !.. فإن هذه المرأة المنطوية الشريرة لا تطاق . و « السيد لا يعلم قطعاً أى شخص خطر يظله منزله ! » .

وعند سماع هذه الألفاظ ، انتفض البارون ، وسأل الخادم عما يعنيه ، فاضطر هذا إلى أن يتراجع ، وادعى أنه لا يستطيع تحديد شىء ، ولكنه يحس أن هذه المرأة حيوان متوحش ، قادر على أن يأتى أمراً رهيباً .. ولقد فطن إلى نظرة منها أشعرته بأنها تود لو كتمت أنفاسه ! ومع أنه ليس من الصواب أن يبنى حكماً على مجرد نظرة ، إلا أنه منذ ذلك الحين صار يخافها ، إلى حد أنه كان يخشى أن يمس لوناً من ألوان الطعام التى تعدها !.. ثم أضاف : « لا شك أن سيدى البارون لا يعلم إلى أى حد تبلغ خطورة هذه المرأة ! إنها لا تتكلم ، ولا تقول شيئاً ، ولكننى أحسبها قادرة على أن ترتكب .. جريمة ! » .

وألقى البارون المفزوع نظرة مفاجئة على صاحب الاتهام !.. ترى هل سمع حديثاً عن شىء محدد ؟.. هل عبر له أحد عن شك ما ؟.. وأحس بأصابعه ترتجف ، فسارع إلى إلقاء السيجار حتى لا يفضح تعرج الدخان اضطراب أعصاب يديه !.. ولكن وجه الخادم الكهل لم يكشف عن أى قصد دفين .. لا !.. لابد أنه لا يعرف شيئاً !.. وتردد البارون ، ثم تسلح فجأة بميله الباطنى وقال :

« اصبر عليها قليلا .. ولكن إذا عادت إلى الغلظة معك ، فلتعطها بالنيابة عنى حسابها وتفصلها » .

وانحنى الخادم ، وعاد البارون إلى الجلوس . كان التفكير فى هذه المخلوقة الغامضة الخطرة ، يفسد عليه نهاره كله .. وقال لنفسه : « قد يكون من الأفضل أن يحدث هذا أثناء غيابى .. فى فترة عيد الميلاد مثلا ! » .. وكانت مجرد فكرة الخلاص المرتقب تشعره بالراحة . وعاد يكرر : « نعم ، أثناء فترة عيد الميلاد .. أثناء غيابى » .. وكأنما كان بهذا التكرار يبرر قراره فى عينى نفسه !

— ١٠ —

● على أنه — فى اليوم التالى — لم يكد ينسحب إلى مكتبه بعد الطعام ، حتى أخذ الباب يدق . فانتزع بصره بحركة آلية عن الصحيفة التى كان يطالعها ، ورمجر قائلا : « ادخل ! » .. وإذا بالخطوة البغيضة — تلك الخطوة القاسية المجرجرة التى تقض أحلامه — تصك أذنيه !.. وفوق هيكل « كريسانس » الأعجف الأسود ، كان يهتز رأس ضامر ممتقع يذكر الرائى برأس ميت !.. فأخذ شىء من الشفقة يخالط فزع البارون ، حين رأى ذلك المخلوق البائس المنحنى على نفسه يقف فى خوف عند حافة السجادة !.. ولكى يخفى ارتباكه ، قال متظاهراً بالسذاجة : « هه! ما وراءك يا كريسانس ! » .. ولكنه لم ينجح فى أن يعطى

عبارته النغمة اللطيفة التى أرادها .. ولاح سؤاله — بالرغم منه — جافاً .. غير ودى !

ولم تتحرك « كريسانس » ، وإنما غاص بصرها فى السجادة .. وفى النهاية تمتمت فجأة كمن يركل فى عنف شيئاً بقدمه ، قائلة : «لقد أخطرنى الخادم بفصلى من الخدمة .. وقال إنه يفعل ذلك بناء على أوامر السيد ! » .

فنهض البارون ، وقد اشتد به الضيق والحرج .. إنه لم يكن يحسب أن الأمر سيسير بهذه السرعة !.. وأخذ يرد عليها بطريقة غامضة غير محددة ، ناصحاً إياها بألا يفزعها الأمر ، وأن تحاول الاتفاق مع الخدم الآخرين .. وبالجملة قال لها كل ما مر برأسه . ولكن « كريسانس » ظلت جامدة فى موقفها ، وعيناها لا تفارقان السجادة ، ورأسها غائر بين كتفيها ، ورقبتها محنية فى عناد .. لم تكن قد أنصتت إلى شىء مما قال ، فقد كانت ترتقب عبارات أخرى لم توجه إليها !.. حتى إذا صمت البارون فى النهاية — ساخطاً على هذا الدور الحقير الذى لعبه أمام الخادم — تمتمت قائلة : « إنما أردت فقط أن أعرف هل سيدى البارون هو الذى كلفه بطردى؟» .

قالت هذه العبارات فى قسوة وعنف غاضب ، فأحس البارون المهتاج الأعصاب بتحفز .. أهو تهديد ؟.. أهو استفزاز ؟.. وفجأة ، تلاشى من نفسه كل جبن ، وكل شفقة .. واختلط البغض والاشمئزاز اللذان تجمعا فى نفسه منذ أسابيع ، بالرغبة فى

إنهاء هذا الوضع .. فغير لهجته تغييراً تاماً ، ليؤكد بالبرود « الإدارى » الذى تعلمه قديماً فى منصبه الحكومى ، أنه قد فوض الخادم تفويضاً تاماً فى كل ما يختص بشئون المنزل . وأنه شخصياً لا يريد لها غير الخير ، كما أنه مستعد لأن يسوى المسألة ، على أنها إذا أصرت على الاستمرار فى فظاظتها مع الخادم ، فسوف يجد نفسه مضطراً إلى أن يستغنى عن خدماتها !

وعند التفوه بهذه العبارات الأخيرة ، استجمع كل قوته ، وقد انعقد عزمه على ألا يتأثر بأية ألفة أو أى تلميح خفى .. وجعل يحدق بعزم وإصرار فى تلك التى ظن أنها تهدده !

لكن النظرة التى رفعتها « كريسانس » نحوه فى تلك اللحظة ، فى استحياء ، لم تكن إلا نظرة حيوان جريح ، يرى أمامه كلاب الصيد خارجة إليه من خلال الأحراش التى كان يأمل أن يجد فيها مأوى له وملاذاً !

وتمتمت الخادم قائلة بصوت كسير : « شكراً !.. إنى ذاهبة !.. فلست أريد أن أثقل على السيد ! » .

وفى بطء ، ودون أن تلتفت ، خرجت تجرجر قدميها ، متهدلة الكتفين !

° ° °

● وفى المساء ، عاد البارون من « الأوبرا » ، وإذ تقدم يتناول بريده اليومى من فوق مكتبه ، لمح على المكتب شيئاً غريباً

مستديراً .. صندوقاً صغيراً من الخشب المحفور بالطريقة الريفية ، لم يكن مغلقاً بمفتاح . وفى داخله ، إلى جوار حزمة من أوراق البنكنوت المستطيلة ، وجد تلك الأشياء الصغيرة التى كانت « كريسانس » قد أخذتها منه ، وقد رتبت فى عناية : بعض خرائط الصيد ، وتذكرة مسرح ، وخاتم من الفضة .. وثمة صورة فوتوغرافية أخذت لكريسانس فى « التيرول » منذ عشرين عاماً .. وفى عينيها اللتين أفزعهما يومئذ بلا ريب وهج المغنسيوم ، رأى نظرة الحيوان المطارد .. نفس النظرة التى لاحظها فى عينيها بعد ظهر اليوم ، وهى تغادر مكتبه ..

وأحس البارون بشىء من الارتباك ، فدفع الصندوق .. ونادى الخادم ليسأله عن سر وجود هذه الأشياء الخاصة بالطباخة على مكتبه !.. فانطلق الخادم بدوره ليبحث فوراً عن غريمته . كى تقدم لسيده إيضاحاً ..

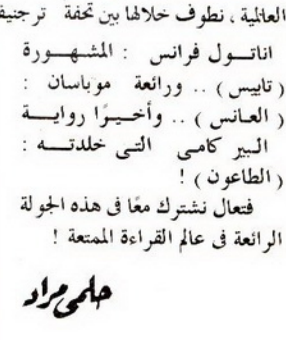
لكن « كريسانس » لم تكن بالمطبخ .. ولا بأية حجرة أخرى .. ولم يعرف مصيرها إلا فى اليوم التالى ، حين أعلن البوليس أن امرأة فى نحو الأربعين قد انتحرت بإلقاء نفسها فى قناة الدانوب .. ومنذ تلك اللحظة لم يعد هناك محل للتساؤل عن مكان ليبوريللا !

[تم الكتاب]



عزيزى القارئ ..

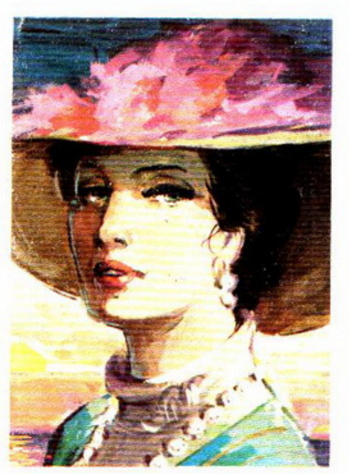
جمعت لك بين دفتى هذا الكتاب الشائق، باقة من أشهر وأمتع القصص العالمية، نطوف خلالها بين تحفة ترجنيف الخالدة : (الحب الأول) .. وقصة



اناتول فرانس : المشهورة (تاييس) .. ورائعة موباسان : (العانس) .. وأخيرًا رواية البير كامى التى خلدته : (الطاعون) !

فتعال نشترك معًا فى هذه الجولة الرائعة فى عالم القراءة الممتعة !

حلمى مراد



قرش جنيه ش
٣ ٠